جمال عبد الرزاق البدري

نبي العراق والعرب

Bibliotheca Alexandrina
0131155

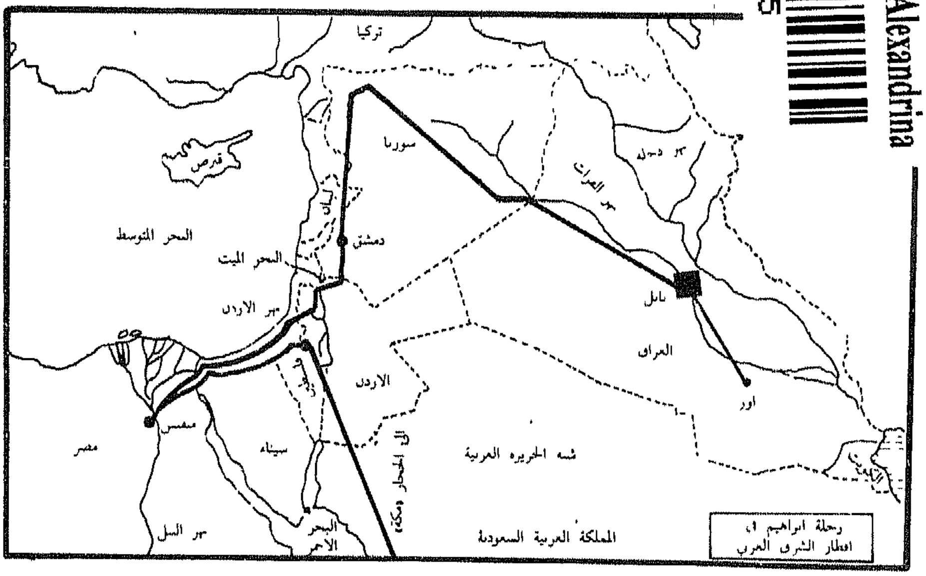

نبي العراق والعرب

جمال عبد الزراق البدري

نبي العراق والعرب

«رؤية تحليلية معاصرة في الشخصية التاريخية والدينية والعصر السياسي للرسول العراقي العربي الكريم ابراهيم الخليل خارج المنظور الصهيوني»

بغداد
١٩٨٩

نبي العراق والعرب (*)

تأليف
جمال عبدالرزاق البدري
عضو اتحاد المؤرخين العرب
عضو اتحاد الادباء والكتاب
في القطر العراقي

(*) اثار العنوان عدداً من وجهات النظر.. واعني به انه نبي العراق وبلاد العرب، مثلما هو نبي لغيرهم من الامم التي آمنت بدعوته التوحيدية.

تزكية

قال تعالى:

«ما كان ابراهيم يهوديا ولانصرانيا، ولكن كان حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين».

«صدق الله العظيم»

تصدير بقلم

الدكتور محمد جاسم حمادي المشهداني
رئيس قسم الدراسات التاريخية
في الجامعة المستنصرية.

ان اختيار مواضيع البحوث والدراسات ليست من الامور الهيّنة، التي تواجه المؤرخ والباحث. . . فالمواضيع المختارة يرتبط امر اختيارها بأسس وقواعد تتحكم في عملية الاختيار؛ وقد ينتقي الباحث بعض الابحاث الصعبة والمعقدة في امر تحليلها واستنتاج مايمكن استنتاجه من ذلك التحليل؛ حيث يركب الباحث متن الصعاب ليحقق مايدور في مخيلته لهدف الاختيار. . . ومن هنا عرفت في السيد جمال عبدالرزاق البدري الجرأة والشجاعة على اقتحام المواضيع الصعبة؛ وكان آخر هذه المواضيع الصعبة التي اختارها السيد البدري الموضوع الموسوم بـ«نبي العراق والعرب»؛ اذ انبرى الى معالجة الموضوع معالجة تحليلية نقدية، بعيدة كل البعد عن الدراسات السطحية الافقية السريعة؛ بل جاءت الدراسة عمودية عميقة ، تعتمد البحث عن الغاطس من التاريخ، الذي حاولت جهات استشراقية وصهيونية وغيرها طمس حقائقه عن قصد وغير قصد، ليؤكد ـ المؤلف ـ بذلك حقائق تاريخية لابد من ظهورها رغم كل المحاولات لطمسها. .

وليبرهن بذلك ايضا على دور منطقة الشرق العربي، الحضاري والتاريخي للبشرية، والذي يعتبر سيدنا ابراهيم ـ عليه السلام ـ رمزها الروحي، والتاريخي؛ مثلما ليؤكد بذلك الترابط ، الصلة العضوية بين ارض العراق وارض فلسطين. . والمصير المشترك بينهما منذ عصر ابراهيم الخليل والى اليوم. .

لقد كان السيد البدري موفقا في رجوعه الى المصادر والمراجع العربية المختارة، سواء من ناحية استخدامه لها او في تحليله وتعليله لرواياتها، او في استنتاجاته لمفرداتها وتركيبه لتلك التحليلات والاستنتاجات من خلال افراغه لها في كتابه هذا والذي وفق في تأليفه ليسد فراغا مهما في المكتبة العربية، التي لم تزل بحاجة ماسة الى كتابات عربية اصيلة بأيدي رجال مخلصين من ابناء الامة. . ذلك ان ماقام به الصهاينة والمستشرقون من محاولات مقصودة للدس والتشويه والتزوير لتاريخ ابراهيم الخليل، امرٌ يثير في نفس كل عربي مخلص لتاريخه ولامته المسالة ؟ لاننا احق من غيرنا بأبراهيم الخليل؛ فهو ارث لنا ولامتنا ولارضنا وهذا يبرر كافة التساؤلات التي تعشعش في اذهان الكثيرين، عن صعوبة الغوض في مثل هذه المواضيع الصعبة. . . متمنين للسيد البدري الموفقية والنجاح، لكونه عودنا دائما على اراء جريئة شجاعة من خلال خوضه في مواضيع تتميز بالدقة والحذر، ولكون الغاطس من حقائقها يفوق ماظهر منها. . .

والله ولي التوفيق.

الغـــايـــة

ان الغاية من هذه الدراسة التحليلية هي تقديم صورة واضحة ومترابطة الأجزاء لشخصية النبي العراقي العربي الكـريم ابراهيم الخليـل؛ ولعصره السياسي والفكري، ولمرحلته التاريخية والدينية، وما ارتبط بها من تطورات عميقة واحداث عديدة، وماترتب عليها مـن ادعـــاءات ودعـــوات دينيـــة وسياسية. . . كل ذلك استناداً الى العوامل الموضوعية ـ المباشرة وغير المباشرة ـ المرتبطة بالغاية، وفق المسلك الخـاص بالـدراسـة، ضمن الخـطة المتسلسلة التي تمثل وجهة نظر المؤلف، وصولا الى تقديم النموذج الفاعل في عملية التكوين التي شكلت اساسيات شخصية الامة ـ عبر تاريخها ـ وبسببها كان التحدي لها منذ عشرات القرون وحتى اليوم. . بمختلف قواه ووسائله البشرية والمادية من الشرق والغرب؛ انه صراع الثوابت والمستجدات المرتبطة بـالمصالـح ضمن اولويـاتها. . وانها السياسة من خلال التاريخ، والتاريخ من خلال ابطالـه، والنبي ابراهيم في مقدمتهم ، بعيدا عن التشويه والدس الصهيوني

مقدمة

ليس تكرارا ان نتساءل ما التاريخ؟ ونجيب:ـ
انه العالم مكتوبا، هو الجنس البشري منبعثاً من كل اجداثه، أخذاً الروح والحياة والحركة.. ازاء الرجال الذين ولدوا، والذين سيولدون؛ من اجل المعرفة للحاضر والمستقبل... وهكذا على حدّ قول الفونس دي لامارتين: «ان الشعب الذي يمتلك تاريخاً اكثر هو الشعب الذي عنده كثير من الفضائل...».

ولاشك في ان العراقيين هم في طليعة الشعوب التي تمتلك تاريخاً اكثر من غيرها، بدلالة الوقائع.. ووسط هذه «التأريخية» ندرك اهمية الدراسات في شؤون الحضارة الفردية منها والجماعية، سواء في جوانبها الذاتية ام الانسانية الشاملة.

ويستحيل وسط هذا ـ الكم ـ الهائل من المعارف والدراسات، على الباحث والقارىء الاحاطة بهذا ـ الكم المعرفي ـ على تباين مستوياته ودرجات اختصاصه وفروعها.. حتى ليحار الكثير من المثقفين في الاختصاص الخاص والعام في متابعة النتاج الفكري الغزير؛ ولهذا فان القراءة الموسوعية تبدو اكثر ضرورة في هذا العصر منها في غيره.. وكلما تقادم العهد بالناس وجدنا ان الموسوعية في البحث والتأليف مطلوبة؛ وآية ذلك ان اكتشاف حركة التاريخ المعاصر حاجة ملحة لفهم «الحياة الجديدة» من خلال سلوك منافذ رئيسية للولوج اليها.. واذكر هنا انني في زيارة خاصة ايام الدراسة الجامعية لاحدى المكتبات التاريخية في ضواحي مدينة طليطلة الاسبانية، تراجعت عن الاستفادة من العديد من الكتب والوثائق في تاريخ العصور الوسطى لكثرتها وتنوعها... ولكنني تمكنت ـ فيما بعد ـ من معرفة تفاصيل مفيدة ، من خلال انتخابي لبضعة كتب موسوعية في التاريخ والادب الاسباني، اغنتني عن تلك المكتبة المليئة بالمئات من الكتابات والتي ضاق بي المجال للاطلاع عليها .. وكذلك فقراءة ديوان للشاعر العظيم المتنبي ـ مثلا ـ تغنيك عن قراءة عشرات الدواوين من الشعر العربي القديم.. ويبدو ذلك اوضح لغير المختصين من المثقفين المعاصرين.. الخ
من هنا انه اذا لم نجعل من «الثقافة التاريخية الموسوعية، ثقافة شعبية تهم اهل الاختصاص وغير الاختصاص، فاننا بذلك نخسر في اكثر من موقع علمي؛ وان السياسة والاجتماع والعسكرية والاقتصاد ومايرتبط بها من تقاليد وشخصية الشعوب لاتكون المعرفة ازاءها متكاملة وعميقة وناضجة بدون فكر تاريخي وثقافة وخلفية تاريخية واعية.

فالثقافة التاريخية ـ بمهومها العام ـ انما هي ثقافة المجتمع المتطلع الى حياة جديدة، فيها روح وفيها حضارة ومدنية وابداع اصيل... ومن ثم يجب ان تكون هذه الثقافة ـ كالملح ـ تدخل في طعام الاكثرية الساحقة من الجماهير؛ فهي ضرورية ايما ضرورة، لان عصرنا بكل مفاهيمه و قيمه واكتشافاته ماهو إلا انتاج للتاريخ المتفاعل الواعي

وخاصة في الحياة السياسية التي تحيط بنا من كل مكان»[1] لان العلاقة بين التاريخ والسياسة مثل العلاقة بين السيف وذراع الفارس... لهذا ولغيره تشكل دراسة الشخصيات العظمى في التاريخ اهميتها الكبرى في الصراعات السياسية والفكرية والاجتماعية.. وتأسيساً على ذلك كانت دراسة شخصية نبي الله ابراهيم الخليل، فضلا عن اعتبارات اخرى متداخلة يمكننا تحديدها كالاتي:-

١. انها تنسجم مع الرغبة في «الموسوعية» لتجسيد مرحلة طويلة، او عدة مراحل مهمة وحساسة في شخصية واحدة، ذات تأثيرات مباشرة وغير مباشرة على مجريات الاحداث؛ اضافة الى جانب الرسالة النبوية التي بُعث بها.. ومن ثم تعد شخصيته (نقطة تحول) نوعية في المسيرة التاريخية والسياسية والفكرية للانسانية...

٢. ان شخصية ابي الانبياء، تعد اول شخصية نبوية بدأت مع الحضارة الناضجة المستقرة؛ اي بعد ان اجتازت حضارتنا العصور البدائية الاولى من التاريخ القديم في منطقة «الشرق الادنى» ووادي الرافدين على وجه التحديد، الذي هو نواة الحضارة الاولى بلا منازع في اعقاب نهاية العصر الحجري الحديث....

٣. ان سيدنا ابراهيم، هو النبي الوحيد الذي ادعت وتدعي الالتقاء به وبدعوته التوحيدية والانتساب اليها كل الديانات السماوية والجماعات الدينية التي جاءت بعده على اختلاف مشاربها.... مع الاخذ بنظر الاعتبار ان هذه الديانات هي الغالبة في مكونات العالم ديمغرافيا وفكريا في الوقت الحاضر والقادم؛ رغم ايماننا ان «اولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه، وهذا النبي والذين امنوا، والله ولي المؤمنين»[2].

٤. انه الرمز الاكبر الذي حقق معطيات حضارية متميزة منذ ايام شبابه الاولى في العراق، وخلال جولاته التي شملت سورية وفلسطين ومصر والحجاز؛ وسنتناول اهم هذه المعطيات في الصفحات التالية بشيء من التفصيل.. الا ان مانريد ذكره هنا، ان سيدنا ابراهيم كان نتاجا عظيماً للحضارة العراقية القديمة في اسسها ومعالمها اللغوية والثقافية والروحية.. وتأثيراتها على سورية وفلسطين وشبه الجزيرة العربية؛ على فترة من الرسل ابتداءً من آدم ووقوفا عند نوح عليهما السلام، وكلاهما عاشا قبل ابراهيم في ارض شنعار - اي ارض العراق - كما تسميها التوراة.

٥. ان كثيرا من التكوينات والاحداث الراسخة في نسيج المنطقة العربية، تبلورت ملامحها منذ تلك الفترة التي عاشها هذا النبي الجليل، بغض النظر عما اذا كان له او لدعوته الحنيفية دور ام ادعى الاخرون عليه ماليس له به علم او مالا يمت اليه بصلة... ولما كانت منطقة [الشرق العربي] او كما تسمى سياسيا بمنطقة [الشرق الاوسط]؛ من اهم مناطق العالم فانه يجدر بنا معرفة خلفياتها، وخلفيات شعوبها

(١) انظر: جمال عبدالرزاق البدري: محمد الثورة والحضارة ط٢ منشورات دار القادسية للطباعة بغداد ١٩٨٢ - ص١٩٩

(٢) الآية ٦٨ من سورة آل عمران

ببصيرة وبتقدير موضوعي لايقبل التأويل المزيف وبما يساعد على التعامل مع احداثها وشعوبها بعمق ودراية، وصولا لتحقيق الفهم لانعكاسات الارتباط الشرطي القائم على جدلية المسببات والنتائج، والحالات المستقرة في الشخصية المعاصرة، لان مايهمنا من التاريخ هو دوره الحافز للاحياء في البناء القيادي والمجتمع الناهض بالقدوة، وبأسباب الرقي المادية والمعنوية المرتبطة بها... وكل ذلك يدخل في علم دراسة الشعوب والمجتمعات وانماط تقاليدها ومؤثراتها المنظورة وغير المنظورة التي تحرك العالم الكبير في السياسة اليوم وغدا[٣].....

٦. على الرغم من اهمية هذه المرحلة من دراستنا إلا انها لم تلق التخصص الدراسي الذي يتناسب مع قدرها الجليل، وان معظم الدراسات والبحوث التي تعرضت لشخصية سيدنا ابراهيم الخليل وعصره، انما نحت منحى دينياً قائماً على القصص والعبرة والعظة المجردة... مما افقد كلا من الشخصية العظيمة والمرحلة التاريخية عطاءها الثر؛ وربما كان للتقادم الزمني الطويل اثره غير المشجع، مما ادى بالبعض الى «اهمال» مثل هذه الدراسات المتخصصة، ماعدا نخبة اكاديمية معزولة نسبياً احتفظت بما لديها بعيداً عن التداول المفيد والمطلوب... ولكن هناك حقيقة ساطعة، وهي ان هذه الشخصية العظيمة اقرب الينا من حبل الوريد، وهي تلقانا سواء وسط الحقائق ام وسط الاساطير... فهي موجودة في وعد بلفور ١٩١٧، وحروب ١٩٤٨ - ١٩٥٦ - ١٩٦٧ - ١٩٧٣ - ١٩٨٢ وفي الانتفاضة الفلسطينية ضد الاحتلال، وفي احداث لبنان، وفي ضرب المفاعل النووي العراقي، وفي التعاون والعلاقات بين الكيان الصهيوني والمجموعة الغربية... كما انها من اكثر الشخصيات - بعد النبي محمد صلى الله عليه وسلم - ارتباطا بتاريخنا العراقي والعربي والاسلامي.... وبالمقابل فهي من اكثر الشخصيات والمراحل التاريخية تعرضاً للتزوير والتزييف الصهيوني، لعلاقة ذلك بالعقائد اليهودية السائدة وبالوجود الصهيوني في فلسطين المحتلة، ومايتطلبه ذلك من ادوات للصراع لتحقيق الغلبة والتفوق واضفاء الشرعية امام الرأي العام والخاص لكسب المعركة الكبرى في المنطقة وخارجها... حتى قال موشي دايان في قصة حياته، مشيراً الى تبرير دخول القوات الصهيونية للقدس العربية عام ١٩٦٧ «لقد استجبنا لدعوة ابينا ابراهيم....»[٤].

(٣) كتب الرئيس الاميركي السابق جيمي كارتر، كتابا يحمل عنوان - دم ابراهيم - تناول فيه شخصية الشرق الاوسط على الرغم من ان مفاهيم الكتاب، متأثرة بوجهات نظر التوراة والصهيونية.. وانه حاول فيه تقريب المواقف السياسية بين [زعماء الشرق الاوسط] ومما ذكره كارتر: ان محادثاته مع السادات وبيغن كانت في معظمها تدور حول النبي ابراهيم واحفاده.

انظر Thr Blood of Abraham -

Jimmy Carter - Insight into The Middle Eest - 1985 - P 8 - 6

(٤) موشي دايان: مذكرات موشي دايان - قصة حياة - ١٩٨١ - الفصل الاول...

٧. ولد ابراهيم الخليل في وسط بيئة مليئة بالشرك والتيه الروحاني - بعد انطماس دعوة نوح التوحيدية - وهذا - فيما يبدو - هو قدر العظماء، لان ولادتهم تكون من خلال المعاناة والمكابدة. . . فنشأ نبي الله ابراهيم وفي نفسه التحدي والجرأة لواقعه الفاسد. . . ورسالته لشموليتها وعظمتها وحركيتها تجسدت في كينونة النبوات الكبرى التي جاءت من بعده. . . فكان موسى - عليه السلام - في مصر، وعيسىٰ - عليه السلام - في فلسطين، ومحمد - عليه السلام - في شبه الجزيرة. . . . . والملاحظ ان العراق حيث ولد ونشأ سيدنا ابراهيم، ومصر حيث ولد ونشأ النبي موسى ، وفلسطين حيث ولد ونشأ النبي عيسىٰ، وشبه الجزيرة العربية حيث ولد ونشأ النبي محمد ، كانت ومازالت هذه الاقطار اهم محركات الادوات الفعالة في السياسة والاقتصاد والدين والمصالح. . اقليميا ودوليا، وهي بمثابة القلب النابض لجسد الشرق الكبير ضمن العالم الواسع. . . وهكذا يمكننا القول: لقد تعاونت ارض العراق مع باقي الارض العربية على احتضان ابي الانبياء - ابراهيم الخليل - وليكون خاتم الانبياء - محمد عليه السلام - من ذلك الاصل الذي ولد في العراق.

٨. ان سيدنا ابراهيم هو اول نبي عربي، جاء على فترة من الرسل عقب النبي نوح بعد الطوفان، وبذلك شكّل نقلة نوعية كبرى في تاريخ النبوة والفكر في الشرق - وليس غير الشرق العربي شهد نبوة سماوية - وكانت جميع النبوّات التالية له من نسله حتى مجيء خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم. . . وعليه فأن العراق لم يكن مهداً للحضارة فقط، وانما هو ايضا مهدٌ للنبوة الاولى والاخيرة. . .

واخيراً فانني لااكتب عن ماضٍ قديم يمتد لاربعة ألاف عام تقريباً، ماضٍ لا لون له ولاطعم ولا اثر يرتجىٰ منه. . . وانما هي قضية واقعية الان في القرن العشرين، وغداً في دماء الاجيال القادمة. . .

واضافة الى كل ماسبق، فأن دراسة شخصية ابراهيم الخليل، هي دراسة لمراحل واسعة من التاريخ والجغرافية والسياسة والفكر والثقافة والدين.

ولابد من القول: ان ماورد في هذه الدراسة المتواضعة قد يتفق مع الروايات المعروفة او لايتفق . . الا انني لم اضع الامامي تحترم اصول البحث واستنتاج الحقائق. . بعيدا عن [الاسرائيليات]. . . ولو اثار هذا مَنْ لايريد الا القدح. .

في الختام، فأن العرفان بالفضل والوفاء لابد من اسدائهما، ولايكون ذلك الا بتقديم الشكر والثناء الى كل مَنْ ساعدني في اتمام دراستي هذه، واخص بالذكر منهم:

١. زوجتي النقيب قوة جوية روضة عبدالرزاق التكريتي لدورها الرائد في توفير سبل النجاح والدعم المعنوي الاصيل لاتمام عملي المتواضع هذا.

٢. الدكتور محمد جاسم المشهداني، رئيس قسم الدراسات التاريخية في معهد

الدراسات القومية والاشتراكية التابع للجامعة المستنصرية ـ الامين العام المساعد لاتحاد المؤرخين العرب، لدوره الطيب في تقديم المصادر والمشورة العلمية، ولاخلاقه السامية في دعم مسعاي بهذا الاتجاه.

٣. السيدة سلوى ساطع الحصري، لجهدها الكريم في ترجمة بعض النصوص التاريخية، ولدورها في توفير احد أهم البحوث المعتمدة والموسوم بـ «دم ابراهيم» من مؤلفه الرئيس الاميركي السابق جيمي كارتر شخصيا.

٤. خبير وزارة الثقافة والاعلام الذي لاأعرف اسمه، ولكن دوره لايقل ابداً عمن سبقه، بل انه اعطى للدراسة الاستقرار والتجانس بين مفرداتها ومعانيها من خلال تصويباته الموضوعية وسعة صدره الكبير.

فللجميع فائق الشكر والتقدير

المؤلف/ خريف ١٩٨٨

مدخل عام
من عصر السلالات
حتى سقوط بابل

يجدر بنا استعراض الاوضاع السياسية والحضارية في منطقة الشرق العربي، خلال العهد الابراهيمي وامتداداته، قبل الانتقال الى تفصيل وجوده - عليه السلام - في الاقاليم التي عاش فيها، وترك بصماته الروحانية بين جنباتها حتى اليوم، مع التركيز على وجوده الاول في ارض العراق[1]. . لان المساحة الجغرافية التي ترتبط بحركة النبي ابراهيم تمتد من العراق، الموطن الاول له، وتسير الى سورية وفلسطين، وتنزل جنوبا الى مصر، والعودة صعوداً الى فلسطين، ثم المرور بالاردن نزولا الى ارض الحجاز، ثم الصعود الى فلسطين، والاستقرار اخيراً في مكة.

بعد الطوفان، ظهر عصر السلالات بحدود ٣٠٠٠ ق.م وهو اول تجربة ناجحة ومتميزة في التاريخ الانساني جاءت بفكرة نظام الحكم السياسي الى المجتمعات البشرية، التي كانت في العراق القديم. . . . . وانتهى هذا العصر بسقوط سلالة اور الثالثة «امبراطورية اور» في حدود ٢٠٠٤ق.م، ومجيء العهد البابلي. . . وامتدَّ هذا العهد حتى نهاية سلالة بابل الاولى في حدود ١٥٩٥ق.م بقيام حكم الكشيين. . ثم عودة السيادة البابلية مرة اخرى . واهم مميزات هذه الفترة من الناحيتين الحضارية والاجتماعية ومايرتبط بهما من تأثيرات سياسية ولغوية ودينية وثقافية، هي الهجرات العربية الكبرى القادمة من شبه الجزيرة العربية الى وادي الرافدين ووادي بردى واليرموك والاردن، وسواحل لبنان وفلسطين وسهولهما الزراعية، بعد ان كانت «الهجرات» السابقة محدودة العدد واحيانا فردية. . . ونتيجة للهجرات الكبرى هذه تغيرت الهياكل العامة لهذه المناطق من النواحي القومية والسياسية والفكرية واللغوية، وباضافة الهجرات العربية «الغربية» الى الاصل العربي القديم الموجودة - هنا وهناك - في وادي الرافدين طغى التحول القومي واللغوي في العراق على غيره من الاصول غير المستقرة. . .

وحتى الطابع السياسي للبلاد اصبح مزيجاً من التراث السومري - الذي يمثل المحلية العراقية - متفاعلا مع الطابع العربي «الجزري» اي القادم من شبه الجزيرة. . . طوال الفترة منذ نهاية سلالة اور الثالثة الى سقوط الدولة البابلية على يد الفرس الاخمينيين في سنة ٥٣٩ق.م[2]

وقبل مواصلة الحديث عن هذه المرحلة يجدر بنا الوقوف عند مصطلحين مهمين جداً في الدراسات التاريخية والسياسية واعني بهما:-

---

(١) تتفق معظم المصادر من يهودية ومسيحية واسلامية على ان ابراهيم الخليل من اور الكلدانيين في العراق. انظر من المصادر اليهودية والمسيحية الكتاب المقدس «العهد القديم والجديد» الصادر عن دار الكتاب المقدس - القاهرة ١٩٨٢. ومن المصادر الاسلامية قصص الانبياء لابي الفداء اسماعيل بن كثير ط٢ مكتبة النهضة بغداد١٩٨٦. وقصص الانبياء للمرحوم عبدالوهاب النجار ط٣، مكتبة النهضة العربية القاهرة - بلا -.

(٢) انظر: طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة - دار البيان بغداد ١٩٧٣، ص٤٣٥ ومابعدها. .

١ـ السومريين اي العراقيون الاوائل...
٢. الجزريين نسبة الى جزيرة العرب[٣]...
وسيكون الحديث عنهما متداخلا لتقارب ظهورهما زمانا ومكانا...
من الحقائق المتداولة ان التاريخ لايعرف [حقائق نهائية] كما ان الحقائق «المكتوبة ليست هي كل الحقائق النهائية، حتى وان اتفق عليها جميع المؤرخين والمحللين»[٤].
اذن: فبالرغم من كل ماقيل عن السومريين، وعن اصل وجودهم فانني ارى انهم «العراقيون الاوائل حضارياً» وهم بقايا قوم نوح ظهروا واستقروا في السهل الرسوبي لوادي الرافدين بعد صلاحه للسكنى والرعي والزراعة.. وهذا الاستقرار اكسبهم [الشخصية العراقية] بتأثير عوامل البيئة والارض والموقع والهواء على حد تعبير ابن خلدون...
وبسبب اصالتهم هذه، استمر تأثيرهم الحضاري قائما حتى عندما افل دورهم السياسي الحاكم بعد سقوط اخر ملوك سلالة اور الثالثة المدعو ـ آبي سين ـ الذي حكم ربع قرن تقريباً[٥]... وفي الفترة نفسها، ظهرت المجموعات الجزرية من العرب القدماء، اي من اطلق عليهم سابقا «الساميون» في مناطق اخرى من العراق...
اما المرحلة الحاسمة لظهور التفوق الجزري، فقد بدأت مع العهد العربي القادم من شبه الجزيرة والذي رافق هجرة الاكديين والاموريين والبابليين، اذْ قامت للاخيرين عدة دول اهمها:ـ
١. سلالة ايسن ومؤسسها اشبي ايرا «٢٠١٧ ـ ١٧٩٤ق.م».
٢. سلالة لارسة ومؤسسها نيلانم «٢٠٢٥ ـ ١٧٦٣ق.م».
٣. سلالة اشنونا «٢٠٠٠ ـ ١٧٦١ق.م».
٤. سلالة آشور «٢٠٠٠ ـ ١٧٦٠ق.م».
٥. سلالة ماري «١٨٥٠ ـ ١٧٦١ق.م».
٦. سلالة بابل الاولى ومؤسسها سومرأبم «١٨٩٤ ـ ١٥٩٥ق.م».
واشهر ملوكها حمورابي...
٧. سلالة الوركاء ومؤسسها سين كاشد «١٨٦٠ ..... ق.م».

(٣) ان التسمية الملغاة هي [الساميون والسامية] وهي تسمية لاتلائم المنهج الواقعي ولا التوجه القومي.. ومن الجدير بالذكر ان لفظ سامي وسامية اول مَنْ صاغها في العصر الحديث هو العالم الالماني شلوتزر وذلك عام ١٧٨١ ميلادية.. وقصد بها مجموعة اللغات الوثيقة الصلة ببعضها، وبالنتيجة انسحب التعميم على الجماعات التي تتحدث بهذه اللغات وسموا بالساميين.. الا ان الاستخدام السياسي لهذا المفهوم هو نتيجة لماورد في التوراة من النسبة الى سام بن نوح كما ورد في سفر التكوين.. انظر بتوسع: جورج رو: العراق القديم، ص٢٠٢.

(٤) انظر: صدام حسين: حول كتابه التاريخ، حديث في الاجتماع الموسع لمكتب الاعلام بتاريخ ١٩٧٧/٩/١٩.
(٥) انظر: طه باقر: مصدر سابق، ص٣٩١.. استمرت هذه السلالة بالحكم للفترة من «٢١١٢ حتى ٢٠٠٤ ق.م» حكم خلالها خمسة ملوك.

٨. سلالة دير... التي انتهت في عام ١٩٥٤ ق.م.
٩. سلالة ملكيئم....؟
١٠. سلالة يموت بعل..؟
١١. سلالة سپار...؟

وبسبب التفاعل الحضاري السلمي بين السومريين وعرب الجزيرة، نلاحظ ان هناك تقبلا لوراثة وتبني، التراث السومري من قبل مؤسس السلالة الاولى لايسن المدعو [اشبي ايرا] الذي اعتبر مملكته وريثة لسلالة اور، ووريثة السومريين بوجه عام في ملوكية بلاد سومر واكد، كما تجلى ذلك في تعلق ملوك هذه السلالة بالثقافة السومرية، حتى سار الكثير منهم على تقليد ملوك ـ اور ـ في القابهم واسلوب الحكم في بلاطهم، وادعى الالوهية بعضهم على غرار الملوك السومريين، ونظمت التراتيل في مديحهم، كما لقبو انفسهم ـ بملك اوروسومرواكد ـ وكانت اللغة السومرية هي اللغة الرسمية لمعظم السكان.. كما تدل على ذلك الكتابات الملكية التي جاءت من تلك الفترة (٦). وهذا كله يقرب الرأي القائل بأن جنوب العراق كان بيئة خصبة لتفاعل السومرية مع الجزرية، اي العراقيين القدماء مع عرب الجزيرة القدماء تفاعلا اكسب الشخصية العراقية عروبتها ولغتها وهويتها القومية بشكل نهائي....

ومما يزيد من تعزيز ما سبق، ان كثيرا من القطع الادبية السومرية، التي وجدت في مكتبة مدينة [نفر] قد الفت او استنسخت في هذا العهد، بطلب من ملوك سلالة ايسن.. كذلك قام الملك [لبت عشتار] ملك لارسة بأصدار شريعته، التي سبقت شريعة حمورابي بنحو قرنين من الزمان، وقد دونها باللغة السومرية، الامر الذي يشير بوضوح الى تعلق ملوك هذه السلالة باللغة والثقافة السومرية.. ولما كانت [اور] مركز السومرية، وان ابراهيم نفسه من [اور] فأن نسبته ترجع الى السومريين ـ الذين هم بقايا قوم نوح بعد الطوفان ـ وهنا يأتي قول القرآن الكريم مؤيدا هذا التصور بشكل عام ومباشر: «ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين، ذرية بعضها من بعض، والله سميع عليم»(٧). وقوله تعالى «ولقد ارسلنا نوحاً وابراهيم، وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتدٍ وكثير منهم فاسقون»(٨).

لقد شهد هذا العصر ابرز الهجرات التي تلتقي بشجرة نسب ابراهيم الخليل العربية العراقية من جهة ابائه وذريته حتى النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهي:ـ
١. هجرة الاكديين الى وادي الرافدين خلال الالف الرابع ق.م.

---

(٦) انظر) طه باقر: مصدر سبق ذكره، ص٤١١... والملاحظ هنا ان اللهجة العراقية الحالية، هي اقرب اللهجات في جذور مفرداتها اللغوية الى اللغة العربية الفصحى «الام» وخاصة لهجة الريف العراقي في جنوب العراق...

(٧) الآية ٣٣ من سورة آل عمران
(٨) الآية ٥٧ من سورة الحديد.

٢. هجرة العرب الغربيين من الكنعانيين والآراميين والفينيقيين الى وادي الرافدين وسورية وفلسطين في الالف الثاني والثالث ق.م.
٣. هجرة الآراميين الى الهلال الخصيب في القرن الثاني عشر ق.م.
٤. هجرة النبطيين منذ القرن الثاني ق.م حتى القرن السادس الميلادي.
٥. اخيرا: هجرة العرب المسلمين في القرن السابع الميلادي(٩).

وقد كانت الهجرة الثانية للعرب الغربيين اهمها بالنسبة لدراستنا هذه، وذلك لاتصالها وصلتها بعصر النبي ابراهيم.. وسأشير الى ذلك في الصفحات التالية.

اما موضوع شجرة النسب فيمكن توضيحه وفق المخطط الاتي، كما اشتهر عند معظم المؤرخين والكتاب:ـ

١. نوح
٢. سام
٣. ارفخشذ
٤. شالح
٥. عابر «وهو جد العبرانيين كما تدعي التوراة».
٦. فالج
٧. رعو
٨. سروج
٩. ناحور
١٠. آزر «كما ورد في القرآن، وتارح كما ورد في التوراة».
١١. ابراهيم

أ. اسماعيل
ب. اسحاق

ان عصرابراهيم الواقع تقريبا ما بين ١٧٠٠ ـ ١٩٠٠ق.م برغم انه يشير الى معاصرة حياة النبي نفسه، يختلف عن غيره، لانه ممتد قبل ابراهيم الى نوح.. وهذا ما اثبته القرآن الكريم، بل ان التوراة توصله الى آدم وتجعل العهد وفق تسلسل:ـ

[الرب ← آدم ← افرام «ابراهيم» ← اسرائيل ← اليهود]

عصر ابراهيم كذلك ممتد خارج حياته الى الزمن المعاصر من القرن العشرين، وما من قرون كما اشرت في المقدمة..

ا اود بيان، ان التوراة اشارت بأن اسم «افرام» اصبح «ابراهيم» بعد ان عقد عهداً مع الرب.. وان هذا التغيير بالاسم عند اليهود هو اضفاء دلالة مقدسة

ظر: جورج رو: مصدر سبق ذكره، ص٢٠٤

خاصة على صاحبه . . وابراهيم عندهم يعني انه «ابو الامم» لان الكثير من الاسماء عند اليهود تشكل من كلمتين[١٠] . . .

اما شجرة نسب ابراهيم في ابنه البكر اسماعيل واولاده، فيمكن توضيحها بالشكل الاتي:

١. ابراهيم
٢. اسماعيل
٣. نبايوت بكر اسماعيل «او نابت كما يذكر ابن كثير. . .».
٤. قيدار «اوقيذار».
٥. اديئل
٦. ميسام
٧. مشماع
٨. دومة
٩. مسا
١٠. حدار
١١. تيما
١٢. يطور
١٣. نافيش
١٤. قدمه

واولاد اسماعيل هؤلاء جاءوا بزواجه من بنت لمضاض بن عمر الجرهمي من ابناء يعرب بن قحطان ـ اي العرب العاربة ـ لذا اصبح ابناء اسماعيل بن ابراهيم الاثنا عشر، اباء للعرب المستعربة[١١] من ابناء عدنان كما في المخطط الاتي[١٢]:ـ

---

(١٠) انظر: د. عبدالوهاب المسيري: موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية ـ رؤية نقدية ـ مركز الدراسات السياسية والستراتيجية بالاهرام، ١٩٧٥، ص٥٦ و ٧٥.

(١١) ليس هناك حالة تاريخية او قومية تؤكد على الاختلاف في الاصل الواحد بين مايسمى بالعرب العاربة والمستعربة وانما هي تسمية يراد بها الوضوح في الاشارة بين عرب الشمال وخاصة في الحجاز، وعرب الجنوب وخاصة في اليمن.

(١٢) للتوسع انظر: عبدالوهاب النجار: قصص الانبياء، ط٣، مكتبة النهضة العربية بمصر، ص٥٠ و ١٠٩. وكذلك انظر: انور الرفاعي: حضارة الوطن العربي الكبير في العصور القديمة، دار الفكر، ص٤٩. وكذلك انظر: محمد حسين هيكل: حياة محمد، ط٣، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٨، ص٨٩. وكذلك انظر: ابن كثير: قصص الانبياء، ص٢٢٢.

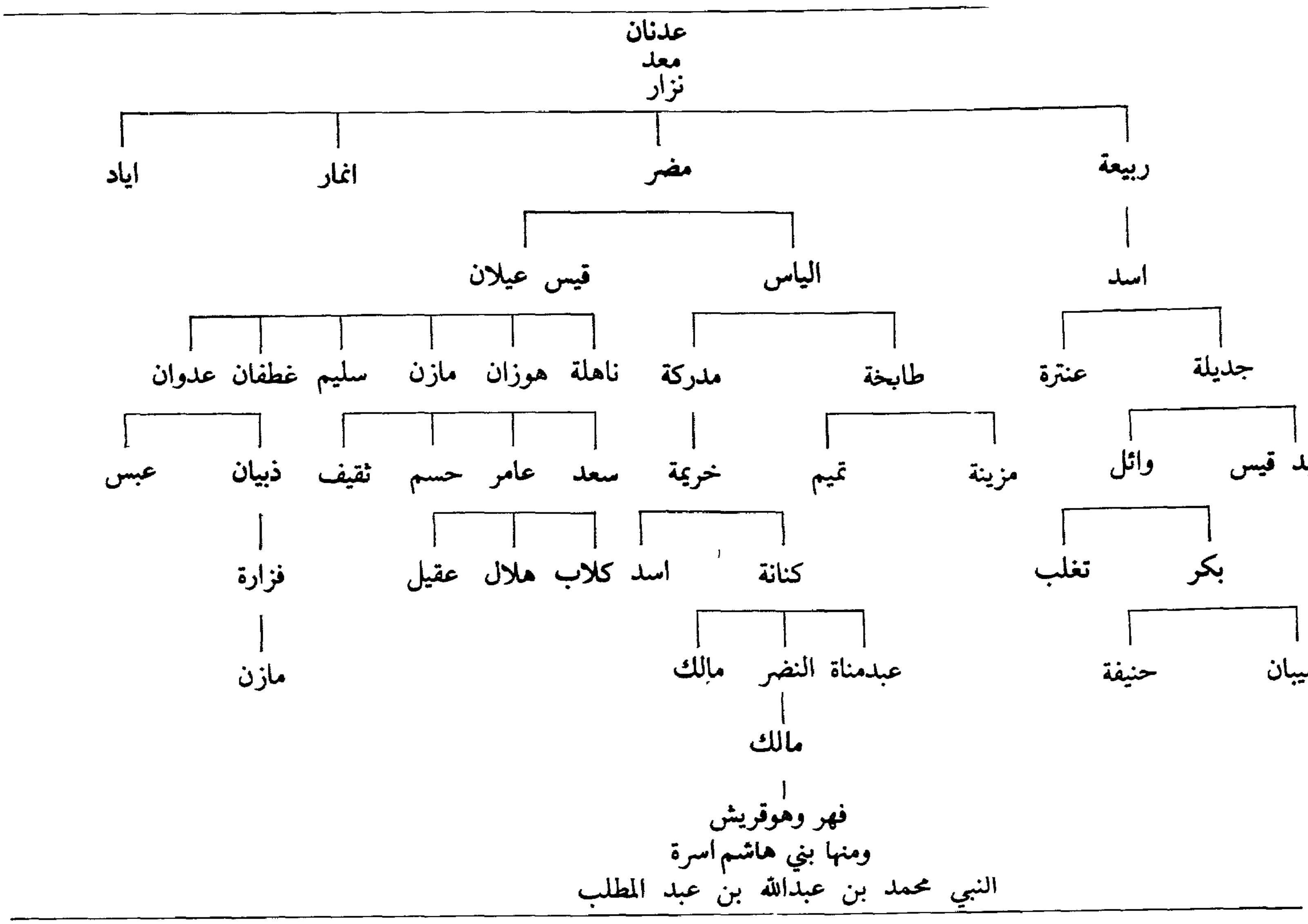
عدنان
معد
نزار
ربيعة
مضر
انمار
اياد
اسد
الياس
قيس عيلان
جديلة
عنترة
طابخة
مدركة
ناهلة
هوزان
مازن
سليم
غطفان
عدوان
عبد قيس
وائل
مزينة
تميم
خريمة
سعد
عامر
حسم
ثقيف
ذبيان
عبس
بكر
تغلب
كنانة
اسد
كلاب
هلال
عقيل
فزارة
شيبان
حنيفة
عبدمناة
النضر
مالك
مالك
مازن
فهر وهوقريش
ومنها بني هاشم اسرة
النبي محمد بن عبدالله بن عبد المطلب

وهنا يأتي قول الله تعالى في قرآنه «وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم، وماجعل عليكم في الدين من حرج، ملة ابيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل، وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم، وتكونوا شهداء على الناس، فأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير»(١٣).

واما شجرة نسب ابراهيم في ابنه الثاني اسحاق واولاده فيمكن توضيحها بالشكل الاتي:

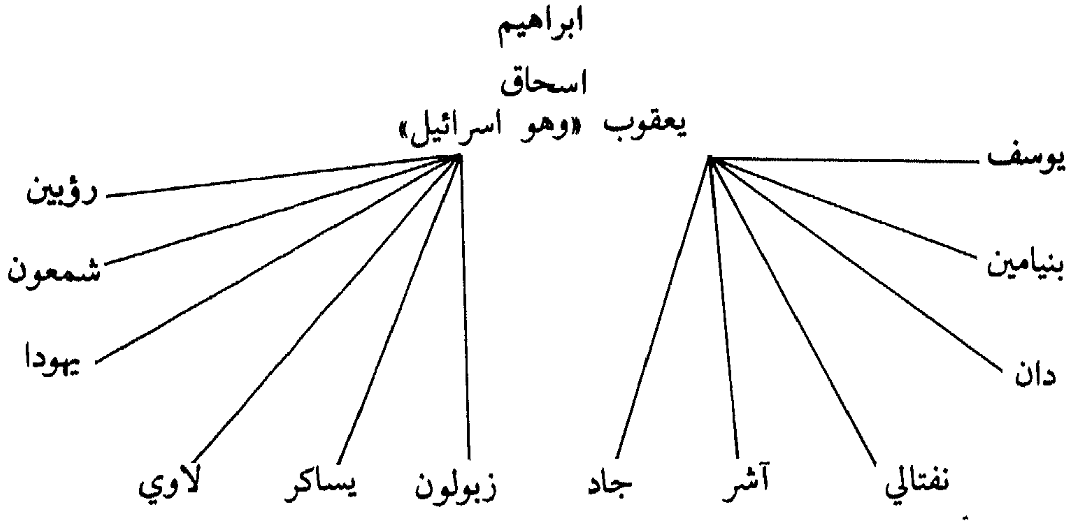

وكان ابرز انبياء بني اسرائيل من السلالة السابقة داود وسليمان وموسى وهارون؛ وبعد تقسيم مملكة سليمان، ثم سقوط مدينة اورشليم على يد نبوخذ نصر انتهى عهد بني اسرائيل من نسل ابراهيم، ولم يبق منهم احد، وفي هذا تنفيذ لوعد الله سبحانه «واذ ابتلىٰ ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن، قال اني جاعلك للناس اماما، قال ومن ذريتي، قال لاينال عهدي الظالمين»(١٤).

ولذا ظهر على المسرح مايمكن ان نسميهم بـ[اشباه بني اسرائيل](*) وهم ـ القضاة ـ الذين ترأسوا بقايا انصارهم، ونسبة هؤلاء القضاة الى بني اسرائيل مردها امران:

١. المصاهرة مع بني اسرائيل من نسل ابراهيم من جهة النساء.

٢. الخدمة الدينية المقربة...

(١٣) الآية ٧٨ من سورة الحج.. وانظر بتوسع: جهرة انساب العرب لابي محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم الاندلسي، تحقيق وتعليق عبدالسلام هارون، سلسلة ذخائر العرب، دار المعارف بمصر، ص٧ و ١٧.

(١٤) الآية ١٢٤ من سورة البقرة.

(*) وهي مرحلة ظهور تسمية «اليهود» نسبة الى افراد يهوذا بالطاعة...

وبذلك انحسر فرع النبي ابراهيم من جهة اسحاق ويعقوب والاسباط واحفادهم على يد البابليين ومن بعدهم الرومان. . ولم يبق منهم إلا الفرع الرئيسي والمتمثل في اسماعيل وابنائه الاثني عشر المولودين في الحجاز؛ واليهم ينتسب معظم العرب فيما بعد من قحطان وعدنان، وفرع ثانوي يتمثل بالبابليين في وسط العراق وجنوبه، وبالاشوريين شماله، وطوائف اخرى متناثرة في بلاد الشام، وخاصة جماعة لوط ابن اخي النبي ابراهيم في الاردن [موآب - عمون - آدوم]، وفرع من نسل النبي يوسف بن يعقوب في مصر، ومنه موسى وهارون فيما بعد. . ويمرّ القرآن الكريم على بعض هذه الدلالات بقوله: «وتلك حجتنا اتيناها ابراهيم على قومه، نرفع درجات مَنْ نشاء، ان ربك حكيم عليم، ووهبنا له اسحاق ويعقوب كلا هدينا - ونوحاً من قبل - ومن ذريته داود وسليمان وايوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين، وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين، واسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين»[15].

وقبل الانتقال الى مواصلة الرحلة مع ابي الانبياء، لابد من الاشارة الى خطأ اقتران الاصل الواحد بين العرب واليهود - كما يحاول البعض اشاعته قصداً او جهلا - وذلك لسببين هما:

١ . ان العرب جنس عام، واليهودية دين خاص، فلا يجوز مساواة الجنس بالدين. . . فالاخير اتباعه من عدة اجناس[16]، والجنس الواحد ينتمي لاكثر من دين فقد تهّود بعض العرب قبل الاسلام، واسلم بعض اليهود فيما بعد. . .

٢ . ان بني اسرائيل على اثر سقوط اورشليم قتلوا مثلما هو مفروض ولم يبقَ منهم اصل يُعتدّ به داخل فلسطين. . وزاد الرومان على يد تيتوس القضاء عليهم. . وتفرق شمل اتباعهم في مختلف انحاء المنطقة العربية ومنهم بنو قريظة وبنو قينقاع وبنو النضير الذين لجأوا الى الحجاز بعد العام ٧٠ للميلاد، حيث وجدوا الامن والاستقرار. . ولكنهم طردوا منها في زمن النبي محمد لتآمرهم على الاسلام. . . ولم يبقَ من اصل ابراهيم ونسله الا فرع اسماعيل وبعض من بقايا نسل يعقوب بن اسحاق. . . اما مَنْ اعتنق اليهودية بعد ذلك فلم يكُ بالضرورة من بني اسرائيل احفاد يعقوب بن اسحاق وهنا ايضا يقع في خطأ تاريخي كبير مَنْ يدعي ان ابراهيم كان ابا للعرب ولليهود[17]. . فمن

---

(١٥) الآيات ٨٤ و ٨٦ من سورة الانعام.

(١٦) تختلف اليهودية دينا عن غيرها من الاديان وذلك بغلق باب الدخول اليها. . واليهودي هو مَنْ وُلد من ام يهودية. . وهذا يتعارض مع طبيعة الدين عامة، ولكنه قرار اتخذه حاخامات اليهود منذ القرون الوسطى. . . وهو لايمت الى الشريعة الموسوية بصلة، ومازال يشكل ازمة هوية لليهود المهاجرين الى فلسطين المحتلة. .

(١٧) انظر جيمي كارتر: دم ابراهيم، مصدر سبق ذكره، ص٤ . وانظر كذلك د. احمد سوسة: «رحمه الله» في كتابه تاريخ العرب واليهود، ووقوعه في هذا الخطأ التاريخي الكبير.

المعروف تاريخياً ان ابراهيم كان اباً لفرع من العرب القدماء هم بنو اسرائيل الاولون، وابا للعرب من فرع اسماعيل. . وعلى كل باحث محقق ان يبحث في حقيقة الصلة بين اسرائيل من احفاد اسحاق ويعقوب وبين اليهود فيما بعد. . لكي يجد الفرق المبين. . .

اذن لقد ادرك ابراهيم الخليل بنافذ بصيرته النبوية، ان العراق ثم مصر لاحقا، انهما منطقتي صراع ساخن سياسيا وحضاريا. . فلم يكن له مقام طويل في مصر، كما لم يك له مقام دائم في مسقط رأسه العراق، ويبدو انه ـ عليه السلام ـ وجد في منطقتين اخريين هما: فلسطين نسبياً ، والحجاز مؤكدا ، المقام المستقر الذي لاتعصف به الصراعات المهلكة. . . وهكذا زرع في فلسطين ابنه اسحاق وحفيده يعقوب ليكملا دعوته «ومَنْ يرغب عن ملة ابراهيم الا مَنْ سفه نفسه، ولقد اصطفيناه في الدنيا، وانه في الاخرة لمن الصالحين. اذ قال له ربه اسلم ، قال اسلمت لرب العالمين، ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب، يابني: ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون. ام كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت. اذْ قال لبنيه ماتعبدون من بعدي؟ ، قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق، الهاً واحدا ونحن له مسلمون»(١٨).

كما زرع ابراهيم ابنه الكبير اسماعيل في الحجاز، تنفيذاً لوعد الله بأن يبعث فيه النبوة، وسيحفظ ذريته. . . وهي لم تزل مستمرة في الجنس العربي دون غيره من المدعينّ بهذه النسبة. . . . . تنفيذا لقوله تعالى:

«واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن، قال اني جاعلك للناس اماما، قال ومن ذريتي ؟ قال لاينال عهدي الظالمين. واذ جعلنا البيت مثابة للناس وامنا، واتخذوا من مقام ابراهيمْ مصلى، وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود، واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا امنا وارزق اهله من الثمرات مَنْ آمن منهم بالله واليوم الاخر، قال ومَنْ كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير. واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل: ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك، وارنا مناسكنا وتب علينا انك انت التواب الرحيم، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم»(١٩).

وهكذا قُدر للنبي ابراهيم ان تستمر ذريته، والنبوة فيها في ارض الحجاز، فيما واجه عنتاً ومشقة في اور وبابل بسبب الاضطهاد الكهنوتي لدعوته التوحيدية. . ولم تجد ـ عليه السلام ـ دعوته في مصر الفرعونية ماوجدته في فلسطين التي كان نجاحه فيها الى

(١٨) الآيات ١٣١ و ١٣٣ من سورة البقرة.

(١٩) الآيات ١٢٤ و ١٢٩ من سورة البقرة.

قرون حتى سقوط اورشليم. . والحق ان تدمير اورشليم المتمردة على سيادة بابل، كان اشارة واضحة مفادها: ان بني اسرائيل واتباعهم هم رعايا للحاكم العراقي، وهذه التبعية لن تلغها هجرة ابراهيم الاولى من العراق الى فلسطين. . . فتبعيتهم تبعية رعية. . . وقد استغل فيما بعد اليهود هذا الامر، ولفقوا حوله المآسي والاساطير لكسب عطف الاخرين. . من خلال قلب الحقائق التاريخية، ومثلهم مثل الفرس ـ فيما بعد ـ من الانتساب الى آل البيت لكسب عطف الاخرين سياسيا. . . .

ان سقوط اورشليم، او بتعبير آخر انتهاء سلالة ابراهيم من جهة اسحاق ويعقوب والاسباط، لايماثله الا سقوط بابل نفسها ـ فيما بعد ـ وكان سقوط بابل بداية لدخول العناصر الاجنبية المتمثلة بالفرس الى وادي الرافدين، سواء منهم الكيشيون او الاخمينيون، والرومان الى بلاد الشام وفلسطين ومصر وشمال افريقيا العربي. . ولم يبق لسلالة ابراهيم من معقل سوى شبه الجزيرة العربية، التي احتضنت اسماعيل بن ابراهيم واحفاده الاثني عشر، الذين اصبحوا عناوين للعرب ـ رغم الجاهلية ـ حتى عادت الحنيفية التي رفع لواءها ابراهيم الخليل منذ ان كان فتىً في العراق، وهي اكثر شمولية ونضوجاً في تطبيقاتها وسمواً في معانيها ومفرداتها على يد النبي العربي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهنا جاء قول الله في قرآنه «قولوا آمنا بالله ومالنزل الينا، وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط ، وما اوتي موسى وعيسى ، وما اوتي النبيون من ربهم، لانفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون»[٢٠].

ويشير العقاد الى ان الدعوات النبوية التي «بدأتها دعوة ابراهيم ، سلالة لم يظهر لها نظير في غير الامم العربية. . وقد ختمت بدعوة محمد، وجاءت دعوة محمد متممة لها، فلا تفهم واحدة منها منفصلة عن سائرها، بترتيب كل منها في زمانها وعلاقة كل منها بمكانها، فلا لبس فيها من جانب العصر ولامن جانب البيئة. . . ومن قرائن الثبوت ان هذه الدعوات النبوية نسبت الى اصل واحد، وهو السلالة العربية، قبل ان يعرف الناس علم المقارنة بين اللغات، فاذا فتشنا عن نسبة ابراهيم لم نجد اصدق من النسبة العربية، كما كانت العربية ـ اللغة ـ يومئذ بين جزيرة العرب وبقاع الهلال الخصيب. . »[٢١]. . فكل النبوات من الشرق، وكل الرسالات من ارض العرب. . .

(٢٠) الآية ١٣٦ من سورة البقرة.

(٢١) انظر: عباس محمود العقاد: ابو الانبياء ط مصر ص٣٩.

ابراهيم في العراق

قبل تناول حياة ابراهيم الخليل، لابد من التوضيح ـ وباختصار ـ الخريطة الدينية التي كانت سائدة في العراق القديم، لمعرفة المجتمع الذي ولد فيه ابراهيم. ان اول مانلمسه بعد اندثار دعوة التوحيد التي جاء بها نوح ـ عليه السلام ـ ان بقايا قوم نوح الذين عرفوا بالسومريين، استوطنوا جنوبي العراق.. فكانوا اصحاب اول حضارة في الشرق القديم وربما في العالم كله. ومما يشجع وجهة النظر هذه: ان السومريين كانوا اول قوم حضاريين في التاريخ القديم، ولم يذكر قبلهم ـ حضاريا ـ سوى قوم نوح الذين صنعوا الفلك العظيم...

كان المجتمع السومري منقسما الى دويلات ومدن، وكانت المدينة بمثابة خلية كاملة عاملة تحوي كل ماتحويه [الدولة ـ الاقليم] فمن حولها الاراضي المزروعة، وفي وسطها المعبد الذي تتركز فيه الحياة الدينية الخاصة بعبادة اله المدينة، وهو المسيطر على كل مافيها، لانه يعتبر المركز الحيوي لكل مظاهر النشاط الاجتماعي والحضاري فيها.. وكان الاله يعتبر[سيد المدينة] وله وكيل اسمه [ايشاكو] يتولى الحكم وتعهد اليه ـ باسم الاله ـ رعاية شؤون الناس.. وهكذا «نجح الحاكم العراقي القديم بتصريف اموره السياسية واصبح المتولي للمهام الكهنوتية بصفته كاهناً اكبر للاله.. اذ ان الحاكم نفسه كثيرا مايكون هو ايشاكو الاله»[1].

وكشفت النصوص التي عثر عليها بين اطلال معبد مدينة ـ العُبيد ـ عن كهنة الهة المدينة، وهي الالهة [نين هرساج) والقابها ام الالهة والبشر، التي ترعى امراء المستقبل.. وكانت تمثل على هيئة بقرة.. اختارت لها زوجاً هو [نانار] اله مدينة اور الذي مثل على هيئة الثور القوي الذي يرمز به الى القمر.

اما اله مدينة [لجش] فكان اسمه [نين جيرسو] ويصور على هيئة نسر كبير له رأس اسد ويقبض على حيوانين. وقد استمر هذا الاسلوب في تصوير الالهة على هيئة حيوان يتكون من اكثر من عنصر منتشرا في العصر السومري، وانتقل منه الى العصر البابلي... والى الشمال من وجود السومريين تشكلت دولة اكد من عرب الجزيرة، والتي قامت على الاسس نفسها التي كانت سائدة عند اوائل العراقيين من السومريين...

فقد اعتقد الاكديون: ان العالم في بدء امره كان يتكون من عنصر واحد هو الماء، وهو يحوي عنصرين ازليين هما:

١. المياه العذبة المسماة [ابسو].

٢. المياه المالحة المسماة [تيامات].

وبتزاوجهما انبثقت الحياة، فكانت الالهة والبشر.. اما الالهة فكانت عندهم مخلوقات سماوية تمتاز بحياة ابدية، ولكن لها احاسيس بشرية... اما البشر فكانت

(١) انظر: سليمان مظهر: قصة الديانات، ط١، دار الوطن العربي للطبع والنشر ١٩٨٤، بيروت، ص٥٧ و ٥٨

تمثلهم مخلوقات ليست بشراً ، كما انها لاترقى الى مصاف الالهة.. ومن ثم كان العالم في تصورهم ينقسم الى:ـ

١. السماء ويسيطر عليها الاله آدوم او انو.
٢. الهواء والارض ويسيطر عليها الاله انليل.
٣. البحار والميحيطات ويسيطر عليها الاله انكي.

والى جانب هؤلاء الالهة، كانت هناك مجموعة كبيرة من الالهة تمثل قوة الطبيعة والعناصر المهمة في البيئة(٢)... اما الناس فقد خلقوا من طينة الارض وشكلوا حتى يشبهوا الالهة، وما خلقوا الا ليكونوا خدما مطيعين لها، ولذلك اعتبر الناس انفسهم ملزمين امام الالهة بأمرين:

١. خشية الاله والخوف منه.
٢. العبادة وتقديم القرابين طمعا في النعم المادية الملموسة في الحياة الدنيا، وليس الحصول على الحياة الخالدة، لان فكرة الجنة والنار، النعيم والعذاب الدائمين لم تكن قد استقرت ـ بعد ـ في عقولهم. واعتقادهم في ذلك ان الانسان مادام يعمل صالحاً فقد استحق رضى الاله، وعاش متمتعاً بالسعادة، اما اذا اذنب بقصد او بدون قصد فأن الاله حاميه سيتخلى عنه فتتلقفه مخلوقات الشر ويتردى في عالم الرذيلة... فعليه ان اراد ان ينجو، ان يلجأ الى السحر ويتمتم بالتعاويذ التي عملها الاله [انكي] للناس فحفظوها عن ظهر قلب، وكان الفرد الذي يتعلمها يصبح كاهنا لا عمل له الا مساعدة الناس للتخلص من ايدي مخلوقات الشر والعودة الى ارض الالهة لترضى عنه(٣).

والى شمال اكد ظهرت في حوالي عام ١٨٩٤ق.م الاسرة البابلية، التي اسسها [سومو آبم] بالقضاء على امراء الجنوب، ثم اعلن نفسه ملكا على بابل بعد ان بسط نفوذه على سومر واكد،وعندما جاء حمورابي ـ بعد ذلك ـ استمر في توسيع سلطانه نحو الشمال والجنوب.. حتى وصل الى اعالي نهر دجلة، وضم بلاد آشور، كما وصل الى تخوم منطقة بحر الشمس العظيم [الخليج العربي].

ومن الجدير ذكره ان العقائد الدينية في عهد الامبراطورية البابلية استمرت على ماكانت عليه في العصور السابقة، لكن عدد الالهة ازداد حتى بلغ اكثر من خمسة وستين الف إله.. الا ان الاله [مردوخ] معبود مدينة بابل، اصبح هو الاله الاعظم للامبراطورية، وسيداً للالهة اجمعين... واستخدمه حمورابي لفرض الوحدة السياسية حتى طلب من الكهان تأليف القصص ونسج الروايات حول [مردوخ] وبطولاته وقدراته.. وكانت اهمها قصة الخلق البابلية التي تتحدث عن بدء الخليقة وكيف

(٢) المصدر السابق..
(٣) المصدر السابق، ص٦٠.

استطاع [مردوخ] ان يصبح سيدا لجميع الالهة[٤].

وسط هذا التحدي السياسي والكهنوتي.. واجه نبي الله ابراهيم الخليل فكرة وعبادة الاله مردوخ، واعرض عن عبادته وعن عبادة الالهة الاخرى بل جعلهم جذاذا الا كبيرا لهم وهو «مردوخ».

ومن المعلوم ان قصة الخلق البابلية، هي القصة التي اقتبسها اليهود ـ بعد مئات السنين ـ اي اثناء السبي البابلي، وجعلوها قصة الخلق المعروفة لديهم، وبها يؤرخون تاريخهم[٥]......

والى الشمال كان الاشوريون، اذ بقيت الاصول الدينية البابلية في جوهرها هي السائدة بينهم ، الا انهم كيفوا العقائد الدينية لتصبح ملائمة للميول الحربية والطابع العسكري الذي تميز به الاشوريون... واعتبروا [أشور] الاله القومي، وملكا للالهة عندهم ، وهو خالق البشرية والاله الحربي الذي لايشفق على اعدائه.

ولاكتمال معرفة الاطار الفلسفي والفكري والاجتماعي في العراق القديم[٦]، لابد من ذكر ابرز الالهة التي كان العراقيون يؤمنون بها، سواء في سومر ام اكد ام بابل ام أشور.. لنعرف موقف ابراهيم الخليل من بني قومه والمعاصرين له في دعوته لنبذ تعدد الالهة.. وسنتناول اهم ثمانية الهة كانت سائدة يومئذ على اوسع نطاق اضافة للاله مردوخ وهي:

١. اونو [اله السماء]: ويمثل مركز الصدارة بين المعبودات، وكان يعتبر اباً للالهة؛ وعند العراقيين هو ابو السموات وملكها، وعرشه على قمة قبة السماء، ويحكم اونو مجموعتين من الالهة هما:

أ . الاجيجي في السماء.

ب . الانوناكي في الارض.

وهما اللذان يقتسمان التصرف في شؤون العالم باشراف اونو.... والسومريون والاكديون مرتبطون اكثر من غيرهم بأونو.

٢. انليل [آله الارض]: ومعنى اسمه سيد الريح والروح، ثم اخذ بعد ذلك لقب [سيد الارض] وله مظهر الجندي المغوار الذي تهز قوته كل الارض.

٣. انكى [آله الماء المقدس]: اوما يسمى بالارض الوسطى، ويعتبر انكي ايضا الها للحكمة، فهو رب الذكاء والعقل والعلم والصناعات.. واليه تنسب عملية خلق

---

(٤) انظر: د. هورست كلنغل: حمورابي ملك بابل وعصره دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ١٩٨٧، ص٣٢ و ١٣٥

(٥) يطلق اليهود على تقويمهم السنوي بالتاريخ العبري وهو حاليا سنة ٥٧٤٨ عبرية مقابل ١٩٨٩ ميلادية... ويعتبروه بداية الخليقة، اي بمعنى ان الحياة بدأت «يهودية» فهم اصل كل شيء بزعمهم.

(٦) للتوسع في هذا الاتجاه انظر: صالح بن حمادي: دراسات في الاساطير والمعتقدات الغيبية، دار بو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع ، تونس ١٩٨٣.

البشر، ونفخ نسمة الحياة فيه.

٤. نرجال [آله العالم السفلي]: وهو اصلا آله الوباء المنوط به تعمير العالم السفلي، ويعاقب بالحديد والنار مَنْ يعتدي على شريعة السماء... ومن مهامه معاقبة المدن التي تثور ضد السماء، ورمزه الاسد، واحيانا يمثل له بالثور او بالغراب.

٥. شمس [آله الشمس]: ويعبر عنه بصورة دائرة باربع حزم من الاشعة، تخرج من بينها اشعة مجعدة متموجة تمثل المعبود الشمسي.. ويعتبر ضوء السموات والارض، ودوره يقصر الايام ويطيل الليالي... وهو ايضا مانح الحياة ومحيي الموتى.. ولانه ظافر على الليل والظلمات يعتبر بطلا.

٦. سن [آله القمر]: وهو ابن الآله انليل ومساعده، واعتبره مجمع الارباب سيد التاج ومانح الصولجان.. ومن مهامه مباشرة تنفيذ العدالة مع الآله شمس، سواء في الليل او في النهار.

٧. عشتار [آلهة الزهرة]: وهي ذات طبيعة انثوية، تعتبر احدى بنات سن آله القمر.. واعتبرها مجمع الارباب البابلي ذكرا في الصباح يشرف عل الحروب والمعارك، وانثى في المساء ترعى الحب والشهوة.

٨. الآله آشور: الآله الاشوري، وهو عندهم سيد الآلهة، ومانح الملك والصولجان، ويمتدحه الناس لسر قوته، ويترنمون بعظمته، وهو يرأس مجمع الآلهة الاشورية، ومن خلاله تحدد مصائر البشر، ولهذا تقدم له الصلوات والقرابين، ويدعو له الناس في كل صباح...

٩. الآله مردوخ او مروك: وهو الآله البابلي الذي اصبح رمزاً وطنياً، وهو ايضا الابن البكر للآله انكي. ورث عن ابيه العلم والسحر... وصورته تشير الى ان له اربع عيون واربع آذان، لذا فهو اعقل العقلاء بين الالهة، الذين سلموه [القوة]، وعن طريقها استطاع ان يدير شؤون السماء والارض... ومقره في السماء حيث كوكب المشتري، ويصور احيانا كأله للعناصر الحربية التي لاحدود لعنفوانها من اجل الدفاع عن الوطن، ولكنه في السلم هو آله الخير الذي يرى ويقدر الاقوات والارزاق، ويشرف على البناء والعمران.. وقد انتشرت عبادته اكثر من غيره من الآلهة في عموم الامبراطورية البابلية، ولقي تأييداً ودعماً كبيرين من الملك حمورابي ومن ابيه ـ من قبل ـ ومردوخ هو الآله الذي واجهه النبي ابراهيم الخليل « ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل، وكنا به عالمين، اذ قال لابيه وقومه ماهذه التماثيل التي انتم لها عاكفون، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين، قال لقد كنتم انتم واباؤكم في ضلال مبين، قالوا اجئتنا بالحق ام انت من اللاعبين؟ قال بل ربكم رب السموات والارض الذي فطرهن وانا على ذلكم من الشاهدين، وتالله لاكيدن اصنامكم بعد ان تولوا مدبرين، فجعلهم جذاذاًإلا كبيراً لهم لعلهم اليه يرجعون، قالوا مَنْ فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين؟

قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم، قالوا فأتوا به على اعين الناس لعلهم يشهدون، قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم؟ قال بل فعله كبيرهم هذا، فسئلوهم ان كان ينطقون، فرجعوا الى انفسهم، فقالوا انكم انتم الظالمون، ثم نكسوا على رؤوسهم، لقد علمت ماهؤلاء ينطقون..»(٧).

يقول الطبري في تاريخه: «لما اراد الله عز وجل ان يبعث ابراهيم ـ عليه السلام ـ خليل الرحمن، حجة على قدمه، ورسولا الى عباده ـ ولم يكن فيما بين نوح وابراهيم عليهما السلام من نبي إلا هود وصالح ـ فلما تقارب زمان ابراهيم الذي اراد الله تعالى ماأراد؛ اتى اصحاب النجوم [نمرود بن كنعان] ملك بلاد ابراهيم وقتئذ في العراق ـ فقالوا له: تعلم انا نجد في علمنا ان غلاماً يولد في قريتك هذه يقال له ابراهيم، يفارق دينكم ويكسّر اوثانكم في شهر كذا وكذا من سنة كذا وكذا.. فلما دخلت السنة التي وصف اصحاب النجوم، بعث نمرود الى كل امرأة حبلى بقريته فحبسها عنده، الا ما كان من ام ابراهيم امرأة آزر، فلم يعلم بحبلها وذلك انها كانت جارية حدثة ـ فيما يذكر ـ لم يُعرف الحبل في بطنها، فجعل ـ نمرود ـ لا تلد امرأة غلاما الا امر به فذبح، فلما وجدت ام ابراهيم الطَلَق خرجت ليلا الى مغارة قريبا منها، فولد فيها ابراهيم ـ عليه السلام ـ»(٨).

وكانت ولادته ضمن منطقة اور الكلدانيين كما تشير التوراة.. واسم امه السيدة [عوشاء] الا ان الحافظ بن عساكر حكى في ترجمة ابراهيم الخليل من تاريخه عن اسحاق بن بشر الكاهلي صاحب كتاب [المبتدأ]، ان اسم ام ابراهيم هو [أميلة] ثم اورد عنه في خبر ولادتها له حكاية طويلة، وقال الكلبي اسمها [بونا] بنت كربتا بن كرثي من بني ارفخشذ بن سام بن نوح(٩).

وابو ابراهيم هو آزر كما ورد في القرآن الكريم، وتقول التوراة انه تارح، وكان نجاراً او صناعاً للاصنام يبيعها الى قومه ليعبدوها(١٠)....

ولد هذا الفتى الذي قدر له ان يقف ضد اسرته، وضد نظام مجتمعه، وضد اوهام قومه، وضد ظنون الكهنة، وضد العروش القائمة، وضد عبدة النجوم، والكواكب، وضد كل انواع الشرك... ولقد ادرك ابراهيم، وهو غلام، ان اباه يصنع التماثيل الغريبة.. ودهش واحس داخل عقله بالرفض، وكان عمره سبع سنين(١١)... ومن هنا فأن الفتى العراقي هو الذي اختار الله، فبعثه نبيا ورسولا على عكس كل الانبياء

---

(٧) الآيات من ٥١ الى ٦٦ من سورة الانبياء.

(٨) انظر: الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ٢، ط١، ص٢٣٤.

(٩) انظر بتوسع: ابن كثير: قصص الانبياء، ص١٢٨..

(١٠) انظر: محمد حسين هيكل: حياة محمد، ط١٣، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٨، ص٨٥.

(١١) انظر: احمد بهجت: انبياء الله، ص١٣، دار الشروق ١٩٨٧، ص٧٧.

الذين اصطفاهم الله وبعثهم لاداء رسالته التوحيدية.

اذن: من غير المعقول جاء المعقول، ومن بيت الاصنام ـ حيث يعمل الاب ـ ولد التوحيد وولدت النبوة ـ ليحطها الاوثان وعبيدها. . . وهذه [الولادة] ايضا لاتخرج عن الظروف العامة التي كانت سائدة في العراق آنذاك؛ فكما مر بنا في الفصل السابق عن الاحوال العامة في منطقة الشرق القديم، والتي كان العراق محورها ومركز الثقل فيها لسيطرته السياسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية. . . فأن الاحوال السياسية والاجتماعية التي كانت سائدة في شباب الفتى العراقي ابراهيم ـ ابان القرن التاسع عشر قبل الميلاد ـ كما اتفق اكثر المؤرخين(١٢) ـ كانت فترة حرجة، فترة اضطراب وتوتر وتكون. . . وهي على وجه التحديد، الفترة التي اطلق عليها الآثاريون اسم ـ فترة ايسن ولارسا ـ [٢٠٠٦ ـ ١٨٠٠ق.م] وكانت تتنازع فيها ثلاث دويلات من اجل بسط النفوذ وهي:

١. مدينة ايسن، واخر ملوكها دامق اليشو، [١٨١٦ ـ ١٧٩٤ق.م].

٢. مدينة لارسا، واخر ملوكها ريم سين، [١٨٢٢ ـ ١٧٦٣ق.م].

٣. مدينة بابل والتي نجحت في توحيد البلاد على يد الملك حمورابي [١٧٩٢ ـ ١٧٥٠ق.م] وظهور المملكة البابلية القديمة، وهي مملكة عربية حكيمت مابين [١٨٩٤ ـ ١٥٩٥ق.م](١٣) حتى سقوطها على ايدي الغزاة الكشيين.

ويبدو ـ بشكل عام ـ من مقارنة تواريخ تلك الفترة، ان ابراهيم الخليل، كان سابقا لظهور الملك حمورابي، حتى ان هجرته من العراق. . جاءت قبيل تولي حمورابي شؤون المملكة. . وان الملك الذي واجه النبي ابراهيم، المسمى عند المؤرخين العرب الاوائل، [نمرود بن كنعان] كان ملكا لاحدى المدينتين المنافستين لبابل [لارسا او ايسن] قبل سقوطهما على يد حمورابي. . علما ان هناك خلافا في التعيين الدقيق لورود اسم مدينتين اخريين هما: [الوركاء وكوثا] اللتان شهدتا النشاط التوحيدي لابراهيم الخليل. . ولسنا هنا في معرض مناقشة في اي المدن كان الخليل. . . لانه فيما يبدو ان مدن [لارسا وايسن والوركاء وكوثا واور وبابل] كلها متقاربة سواء في علاقاتها او جغرافيتها، الى الدرجة التي تعتبر فيها منطقة او اقليما حضارياً واحداً هو مايسمى في العصر الحديث بـ[الفرات الاوسط]، من العراق. . .

ولكن المهم، ان عنصر التحدي الاساسي الذي دار في حياة النبي ابراهيم، بعد تلقيه امر الرسالة انحصر في جانبين:

---

(١٢) انظر: جي مكوين: بابل، لندن ١٩٦٤، ص٣٨.

(١٣) انظر: احمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ، ط٢، العربي للاعلان والنشر والطباعة ـ دمشق، ص٢٦٤.

١. اقناع الملأ من قومه للايمان بالله الواحد الاحد. . .
٢. تجنب الصدام مع السلطة الحاكمة وخاصة الملك نمرود. . . .

وفيما يتعلق بالجانب الاول، كان نجاح ابراهيم محدوداً ومقتصراً على اهل بيته وخاصة زوجته سارة العراقية الاصل، وابن اخيه لوط وبعض عبيده وامائه. . الذين كانوا في خدمته وادارة امواله، باعتباره سيداً له مقام اجتماعي مرموق ومعروف في منطقته تلك. . . اما الجانب الثاني. . فلم يتمكن ابراهيم من تجنب الصدام مع سلطة الملك وذلك لسببين:

أ. ان الملك في تلك الفترة من تاريخ العراق كان يعد الآله والحاكم، وهو الجامع للسلطتين الدينية والدنيوية. . .

ب. ان الملك نمرود، ادرك ان دعوة التوحيد هذه، هي سلب لسلطاته التشريعية المرتبطة بالحاكمية على الناس ، لان الايمان بالله يقتضي التسليم له بالطاعة ، والامتثال لما امر به الله ونهى عنه بمقتضى الالوهية والربوبية المعبر عنها بالحاكمية. . وهكذا فيما كان ابراهيم يدك رموز القوم الوثنية ويحاججهم في موروثهم الفكري كما وصفه القرآن الكريم «وحاجّة قومه، قال: اتحاجوني في الله وقد هداني، ولا اخاف ماتشركون به الا ان يشاء ربي شيئا،وسع ربي كل شيء علما افلا تتذكرون، وكيف اخاف ما اشركم ولا تخافون انكم اشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا، فاي الفريقين احق بالامن ان كنتم تعلمون؟ الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الامن ، وهم مهتدون. وتلك حجتنا اتيناها ابراهيم على قومه، نرفع درجات مَنْ نشاء، ان ربك حكيم عليم»(١٤).

وكذلك قوله تعالى في هذا الموقف:

«وابراهيم اذْ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه، ذلكم خير لكم ان كنتُم تعلمون ، انما تعبدون من دون الله اوثانا وتخلقون افكا، ان الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقا فاتبعوا عند الله الرزق، واعبدوه واشكروا له، اليه ترجعون، وان تكذبوا فقد كذب امم من قبلكم، وما على الرسول الا البلاغ المبين»(١٥).

حينئذ استدعاه الملك نمرود، ليدور بينهما الحوار التالي: «ألم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه، ان اتاه الله الملك، اذ قال ابراهيم: ربي الذي يحيي ويميت، قال انا احيي واميت، قال ابراهيم: فأن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب، فبهت الذي كفرَّ والله لايهدي القوم الظالمين»(١٦).

ثم جاء ردّ السلطة واتباعها، عندما جاءها التحدي:

---

(١٤) الآيات ٨٠ و ٨٣ من سورة الانعام.
(١٥) الآيتان ١٦ و ١٨ من سورة العنكبوت.
(١٦) الآية ٢٥٨ من سورة البقرة.

«قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين، قلنا يانار كوني بردا وسلاما على ابراهيم، وارادوا به كيدا، فجعلناهم الاخسرين، ونجيناه ولوطاً الى الارض التي باركنا فيها للعالمين، ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة، وكلا جعلنا صالحين»[١٧].

اذن: بعد فشل مؤامرة احراقه ـ عليه السلام ـ بالنار، كان قرار الهجرة من العراق.. واشتملت الهجرة على ثلاثة اسماء اساسية من آل ابراهيم هم:

١. سيدنا ابراهيم الخليل
٢. زوجته سارة
٣. ابن اخيه لوط الذي آمن به قبل هجرته...

اضافة الى مجموعة من العبيد والاماء..

ولنترك آل ابراهيم في هجرتهم.. ونعود قليلا الى واقع العراق الاجتماعي والفكري والسياسي لنرى الناس في موقفهم من الدين في العراق القديم، اذ كانوا على ثلاث فئات وهي:

١. فئة تعبد الاصنام والتماثيل الخشبية والحجرية.
٢. فئة تعبد الكواكب والنجوم والشمس والقمر.
٣. فئة تعبد الملوك والحكام[١٨]...

اما ابراهيم الذي عاش واقع مجتمعه ورفضه، لانه باطل ومنحرف، فقد قاطع قومه، مثلما هم قاطعوه، هو في سبيل الله، وهم في سبيل الباطل «قد كانت لكم اسوة حسنة في ابراهيم، والذين معه، اذ قالوا لقومهم انا براؤا منكم ومما تعبدون من دون الله، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابداً، حتى تؤمنوا بالله وحده....»[١٩].

وهكذا اختار ابراهيم طريقاً ، واختار قومه طريقاً آخر لايلتقيان..

وهنا لابد من ذكر الملاحظات التالية على حياة ابراهيم الخليل وسيرته وهو في العراق:ـ

١. ان شخصيته ـ عليه السلام ـ مرت باطوار نفسية وفكرية، قبل ان تبلغ مداها الزمني الذي تجسد في بناء الكعبة بيت الله الحرام ـ فيما بعد ـ والذي أكد النزوع النبوي

(١٧) الآيات ٦٨ و ٧٢ من سورة الانبياء.. والاشارة هنا الى الارض التي باركنا فيها للعالمين تشمل اقليم بلاد الشام بما فيه سورية والاردن وفلسطين، بخلاف الدعوة الصهيونية من قدسية ارض الميعاد «صهيون واورشليم» على ماسواها من الارض المجاورة.. وان كانت فلسطين هي قلب الارض المقدسة.

(١٨) انظر: احمد بهجت انبياء الله، مصدر ذكره، ص٧٦.

(١٩) الآية ٤ من سورة الممتحنة.

والانساني لديه على حسم [الولاء] الجغرافي والديني، المرتبط بالاحاسيس الاجتماعية والسكانية ومدلولاتها التاريخية ليرتبط بالمطلق الكوني، ومن هنا كانت هجرته، البحث عن البديل، وتصور الافضل. . حتى لم تشبه هجرته في التاريخ كله سوى هجرة النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مكة الى يثرب، لمواصلة الرسالة وحماية قيم النبوة، والاعتصام بالتوحيد من الفتنة والاضطهاد. . .

٢. كانت مواجهة السلطان الحاكم من قبل الفتى ابراهيم بداية لحركة التحرر من تبعات الحاكم المنحرف عن الحق. . واعلانا لميلاد المطالبة بحقوق الانسان لاول مرة في تاريخ البشرية. . . والتي تلتها واستلهمت جوهرها وعبرت عنه بشكل غير مباشر بعد عقود من السنيين مواد شريعة حمورابي، استجابة لاجواء المطالبة بالعدالة وفق مفهوم ذلك العصر[٢٠]. . .

٣. في خضم المجابهة الفكرية المبدئية بين الحاكم وبين النبي ابراهيم، فان الخليل لم يعدم وجود الانصار والمؤيدين المؤمنين بالتوحيد، مما اضفى على دعوته [قوة العصبة] كما يسميها ابن خلدون، التي اعطته الدعم والتأييد على طريقة ذلك الزمن، مع قناعة سيدنا ابراهيم، ان الله سبحانه كان معه ولاينساه. . .

٤. ان ابراهيم الخليل قد تحدى الكافرين من قومه تحديا لالبس فيه ولامجاملة، فسعى الى هداية ابيه الذي رفض الايمان «واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا، اذ قال لابيه يا ابتِ لِم تعبد مالايسمع ولايبصر ولايغني عنك شيئا، ياابتِ قد جاءني من العلم مالم يأتك فاتبعني اهدك صراطا سويا، باأبتِ لاتعبد الشيطان، ان الشيطان كان للرحمن عصيا، ياابتِ اني اخاف ان يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا، قال أراغب انت عن الهتي ياابراهيم؟ لئن لم تنته لارجمنك واهجرني مليا، قال سلام عليك ساستغفر لك ربي انه كان بيّ حفيا»[٢١]. كما سعى لهداية قومه فرفضوا الايمان «واذ قال ابراهيم لابيه وقومه انني براء مما تعبدون، الا الذي فطرني فانه سيهدين، وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون»[٢٢].

٥. ان التوحيد لايقبل التجزئة، ورغم ذلك فأن هناك تطورا تصاعديا فكريا ونفسيا، سبق هجرة ابراهيم الخليل من العراق، يتعلق بالبحث عن طريق الاله ـ من هو؟ اين هو ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون. . . ويمكن القول انها الرغبة بالاستقرار، وليست حيرة وقلقاً. . وهي مثل رغبة العلماء في الوصول الى نتيجة تطمئن لها الافكار والنفوس والسعي المشروع. . رغبة منشؤها الوضع الجغرافي لوادي الرافدين، وخصوصية المنطقة، والتداخل الطبيعي للكون، والتحدي الفطري للانسان العربي. . وعلاقة

(٢٠) انظر: د.هورست كلنغل حمورابي ملك بابل وعصره مصدر سبق ذكره، ص٨٧ وما بعدها. .

(٢١) الآيات ٤١ و ٤٨ من سورة مريم.

(٢٢) الآيات ٢٦ و ٢٨ من سورة الزخرف.

ذلك بابراهيم، انه مازال في الناموس النسبي مهتديا، ولكن مازال الناموس المطلق يريده ان يعاني حتى يجد الطريق وهو له معين مؤيد في سعيه هذا «وإذْ قال ابراهيم لابيه آزر اتتخذ اصناما الهة؟ اني اراك وقومك في ضلال مبين، وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض ، وليكون من الموقنين. فلما جن عليه الليل رأى كوكبا، قال هذا ربي ، فلما افل قال لاحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي، فلما افل قال لئن لم يهدني ربي لاكونن من القوم الضالين، فلما رأى الشمس بازغة، قال هذا ربي، هذا اكبر، فلما افلت، قال ياقوم اني بريء مما تشركون، اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفاً وما انا من المشركين. وحاجّه قومه. قال اتحاجوني في الله وقد هداني، ولااخاف ماتشركون به الا ان يشاء ربي شيئا، وسع ربي كل شيء علما افلا تتذكرون؟ وكيف اخاف ما اشركتم ولاتخافون انكم اشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا، فأي الفريقين احق بالامن إن كنتم تعلمون؟ الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الامن وهم مهتدون، وتلك حجتنا اتيناها ابراهيم على قومه، نرفع درجات من نشاء، ان ربك حكيم عليم»(٢٣).

وقد وردت مثل هذه المحاورة ايضا في الاية٢٥ من الفصل ٢٣/٢٥ من انجيل برنابا نقلا عن السيد المسيح عليه السلام(٢٤).

٦. وإذا طلبنا المقارنة، وجدنا ان هناك شبهاً فريداً بين احداث سيرة النبي ابراهيم الخليل واحداث سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ومنها الحالات الاتية:

أ. ان كلا النبيين ـ عليهما السلام ـ اصطدما مع قومهما، واضطرا الى الهجرة بعيدا عن الاهل والديار(*)...

ب. ان كلا النبيين اشتغلا في التجارة وارتحلا تاجرين الى خارج بلادهما: ابراهيم الخليل ارتحل الى مصر، والنبي محمد ارتحل الى بلاد الشام(٢٥)...

جـ. ان كلا النبيين شهدا الفداء: النبي ابراهيم أمره الرب بذبح ابنه البكر اسماعيل، ففداه بذبح عظيم، والنبي محمد اصابت اباه عبدالله ـ قرعة الكهان ـ ليذبح وفاء لنذر عبدالمطلب الذي رزق بعشرة ابناء، فاراد التضحية باحدهم.. فوقع الاختيار على عبدالله والد محمد، ففدي بمائة من الابل...

(٢٣) الأيات ٧٤ و ٨٣ من سورة الانعام.

(٢٤) انظر: عبدالوهاب النجار: قصص الانبياء، مصدر سبق ذكره ص٨٠ و ٨١.

(*) كان العراق للنبي ابراهيم بمثابة مكة للنبي محمد، مثلما اصبحت فلسطين والحجاز للنبي ابراهيم بمثابة يثرب للنبي محمد بعد الهجرة. كذلك فان اتخاذ النبي ابراهيم فلسطين مستقرا مؤقتا له وتحوله الى ارض الحجاز، يشبه اتخاذ النبي محمد [القدس والمسجد الاقصى] قبلة اولى للصلاة، ثم امره الله تعالى بالتوجه الدائم الى الكعبة في مكة المكرمة.

(٢٥) انظر: احمد سوسة: مصدر سبق ذكر ، ص٢٦٨.

د. ان كلا النبيين اقترنا بامرأة مصرية: ابراهيم بهاجر ام اسماعيل، ومحمد بمارية ام ابراهيم وقاسم..

هـ . ان كلا النبيين الكريمين وجدا الى جانبه زوجة مؤمنة صالحة مؤازرة، ذات اصل رفيع ومنبت طيب:

ابراهيم وجد الى جانبه سارة، ومحمد وجد الى جانبه خديجة بنت خويلد[٢٦].....

ومايهمنا في هذه المقارنة السريعة مايتعلق منها بزوجة النبي ابراهيم سارة العراقية.. فهي شخصية ذات اصل من وادي الرافدين، والمشهور انها ابنة عم ابراهيم المسمى هاران.. وتتجلى صفاتها الظاهرة في القرآن الكريم على انهاسيدة شرقية عراقية الطبع والطباع،ويبدو ان سيدنا ابراهيم اقترن بها في وقت مبكر من شبابه وهو في العراق، الا انها لم تلد له الا بعد ان تجاوزت سن الشباب، وبمعجزة اشارت اليها الكتب المقدسة... وكان ذلك بعد زواج ابراهيم من هاجر اثر عودته من مصر، وولادة الابن الاكبر له [اسماعيل] في ارض فلسطين.. وبعد هجرة اسماعيل الصغير مع امه الى الحجاز، حملت سارة ووضعت اسحاقا الابن الثاني لابراهيم الخليل وذلك في فلسطين، وهو الابن الاخير للنبي ابراهيم.. «ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى، قالوا سلاما، قال سلام، فمالبث ان جاء بعجل حنيذ، فلما رأى ايديهم لاتصل اليه نكرهم واوجس منهم خيفة، قالوا لاتخف انا ارسلنا الى قوم لوط، وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بأسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب ، قالت ياويلتي أألد وانا عجوز وهذا بعلي شيخاً، ان هذا لشيء عجيب؟ قالوا اتعجبين من امر الله رحمت الله وبركاته عليكم اهل البييت انه حميد مجيد»[٢٧].

وقد اخذ اليهود الصهاينة[٢٨]، وضع تقليد في نسبة المولود الى امه، وليس الى ابيه كما هي العادة.. وان اليهودي ـ في عرفهم ـ مَنْ كانت امه يهودية.. في محاولة لتجريد اسماعيل من حق النسبة الى ابراهيم الخليل، لان امه ـ هاجر ـ مصرية غير يهودية.. وهذه مماحكة غريبة ومتناقضة. فاليهودية لم تكن موجودة اصلا في عهد ابراهيم، وانما ظهرت باتفاق كل الاراء الدينية والعلمية الاثارية والتاريخية في عهد النبي «موسى ـ عليه السلام ـ اي بعد سبعة قرون على عهد ابراهيم واسحاق ويعقوب، وقد اكد القرآن الكريم هذه الحقيقة الواضحة بقوله:

---

(٢٦) انظر: جمال عبد الرزاق البدري: محمد الثورة والحضارة، ط٢، دار القادسية للطباعة، بغداد ١٩٨٤، ص٧٥ ومابعدها...

(٢٧) الأيات ٩٦ و ٧٤ من سورة هود.

(٢٨) يمثل مايسمى بـ «اليهود الربيون» النسبة الاكبر من يهود الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة، سواء من الاشكناز او السفارديم، وطقوسهم وشريعتهم ومحاكمهم الدينية وتأثيرهم السياسي الاجتماعي هو السائد على سواه من جماعات يهودية اخرى... ومعظمهم من الصهاينة المتطرفين سياسياً وفكريا...

«ياأهل الكتاب لِمَ تحاجّون في ابراهيم ومماانزلت التوراة والانجيل الا من بعده افلا تعقلون؟»[٢٩].

وهكذا وقع اليهود في ـ فخ تاريخي ـ كبير مفاده انهم غير صادقين في دعوتهم الانتساب الى ابراهيم الخليل، فتحايلوا بطريقة ملتوية ـ كعادتهم ـ على الانتساب الى اسحاق بن سارة، وبالتالي وضع الافضلية بالنسب للام على الاب، وهذا غير جائز عند امم الشرق قديما وحديثا. . ورغم ذلك فمن الواضح ان سارة ام اسحاق ليست يهودية ـ كما يدعون ـ وليست من بني اسرائيل، وانما هي عراقية عربية، وحتى النسبة الى بني اسرائيل ـ هنا غير صحيحة ـ لانها لاتبدأ من ابراهيم وسارة واسحاق، وانما من حفيدهم يعقوب بن اسحاق الملقب باسرائيل، ومنه جاء الاسباط الاثنا عشر واحفادهم المسمون ببني اسرائيل. . ولذا وقع اليهود في الخطأ نفسه، عندما انتسبوا الى [سامية] سام بن نوح، واهملوا الانتساب الى النبي نوح ـ عليه السلام ـ بغضا لاخوته، وهنا ايضا انتسبوا لاسحاق بغضا لاسماعيل، وانتسبوا لسارة بغضا لهاجر. . . والملاحظ ان هذا السلوك اليهودي لايشبههم فيه الا الفرس، بتفريقهم بين اصل واصل وفرع وفرع من البيت النبوي واوائل المسلمين لاعتبارات سياسية لاغير تحت [لافتة الدين]، وهناك الكثيرة من المتشابهات بين اليهود والفرس عبر التاريخ.

(٢٩) الآية ٦٥ من سورة آل عمران.

ابراهيم في بلاد الشام ومصر

يبدو ان سيدنا ابراهيم الخليل لما غادر العراق، اتجه عبر بادية الجزيرة الغربية ، بمحاذاة نهر الفرات، قاصدا بلاد الشام، ويبدو ايضا ان اول مدينة حط رحاله فيها كانت مدينة [هيت] ومنها الى مدينة [عانه] ثم توقف في [ماري] ومنها الى [ارام حران] ثم نزل جنوبا في خط سيره ماراً بـ[تدمر ودمشق]. . . .

ومما يجدر ذكره هنا، ان الاراميين الذين تنسب ـ خطأ ـ التوراة ابراهيم اليهم، استوطنوا عدة مدن من ابرزها: ارام نهر ايم وحران، ومركز فدان ارام، وارام صوبا، وارام معكة، ومملكة دمشق وشمأل. . .

واما [ارام حران] فهي مدينة قوافل، وان اسمها مشتق من الكلمة الاكدية [حرانو] التي تعني الطريق(1). . . مما يؤكد سعة التأثير الحضاري العراقي خارج منطقة وادي الرافدين. . . . وهذه المدينة لم تكن مركزاً اساسياً في حياة النبي ابراهيم، اذ لا دليل يقدمه اي ادعاء بخلاف ذلك.

واصل ابراهيم الخليل مسيرته فدخل [ارض كنعان] فمر بشكيم «نابلس» ومنها الى اورشليم «القدس»، وكانت مدينة صغيرة في اول عهدها، ويبدو انه لم يقم هناك الا اياما بسبب القحط الذي كانت تمر به ارض كنعان آنئذ، فغادرها عبر سيناء الى مصر الفرعونية لغرض التجارة، وربما حاول نشر دعوته التي لم تلقَ آذانا صاغية بسبب سطوة الفرعون، كما كانت سطوة الملك نمرود في العراق من قبل. . . وعلى الارجح ان سفره الى مصر جاء لان فلسطين يومئذ كانت محمية مصرية، فاراد الاتجار في بلاد النيل وتحقيق منافع تعينه على مواجهة اعباء الحياة كشأن الرجال الكرماء الذين يقومون بأود انفسهم واود عوائلهم. . . . . . والنبي ابراهيم اعتمد على نفسه في الحصول على رزقه خاصة وانه ترك الكثير من املاكه في العراق دون الرجوع اليها. . . .

اما الاوضاع السياسية العامة التي كانت سائدة في مصر ابان العهد الابراهيمي، فيمكن اختصارها بالشكل الاتي: لقد كانت الاسرة الفرعونية التي حكمت مصر مابين سنتي [٢٠٠٠ ـ ١٧٨٥ق.م] هي الاسرة الملكية الثانية عشرة وكان مؤسسها الفرعون امنمحات. . وقد حكم مصر في عهد هذه الاسرة الكبيرة، الفراعنة:

١. سيزوستريس الاول
٢. امنمحات الثاني
٣. سيزوستريس الثالث
٤. امنمحات الثالث

وقد شهدت مصر استقراراً داخليا ونفوذا خارجيا في عهد هذه الاسرة.ومع ان اصل

(١) انظر: طه مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، مصدر سبق ذكره ، ص٤٩٣.

هذه الاسرة كان من طيبة، لكنها استقرت في منفيس ، حيث تمكنت من ان تحكم مصر بصورة افضل واسهل واكثر قيادة..

وكان الفرعون سيزوستريس الثالث [١٨٨٧ - ١٨٥٠ق.م] اعظم فراعنة مصر، ونشأت حول ذكره اساطير وحكايات...

وقد امتدت فتوحاته الى فلسطين.. وقام باعمال عمرانية جليلة وعديدة(٢)...

ومما دسته الاسرائيليات من تلفيق - فيما بعد - حول دخول النبي ابراهيم الى مصر الفرعونية قضية لاتليق بالانبياء، تلك هي محاولة زواج الفرعون من سارة زوجة ابراهيم، اذ نُسب اليه - عليه السلام - تظاهره امام الفرعون ، بان سارة هي اخته وليست زوجته، لكي لايأخذها الفرعون غصبا... ولكن الفرعون ردها اليه بعد ان رأى في المنام ان سارة زوجة لرجل صالح ، فعاتبه واكرم مثواه.. ولانريد ان نقف امام هذه الحادثة لانها كما تقدم واحدة من [الاسرائيليات].... فالمهم ان النبي ابراهيم عاد الى فلسطين، لتبدأ مرحلة جديدة في حياته...

وفي بلاد الشام ستكون له مواقف اخرى...

وقبل الانتقال الى فلسطين «الارض المباركة» التي عايشها النبي ابراهيم، لابد من استعراض ابرز الاقوام التي كانت سائدة في منطقة بلاد الشام وهم: [الاراميون] الذين جرت محاولة لنسبة ابراهيم الخليل اليهم بشكل مباشر، بقصد ابعاد ابراهيم عن صلته بالاصل العربي، من خلال الادعاء بتفرد الارامين عن بقية الهجرات من الجزيرة العربية، وهي دعوة شبيهة بمحاولة ابعاد السومريين عن اصلهم وانتمائهم العراقي الاصيل، ونسبتهم تارة الى الهند وتارة اخرى الى عيلام فارس...

من المعروف ان [الارامية] شأنها شأن الكنعانية والعبرية - فيما بعد - تعود الى المجموعة الشمالية الغربية من اللهجات العربية الجزرية ذات الاصل الواحد، وهي تقترب جدا من اللغة العربية في نقاط عديدة، مما يوحي بأن الموطن الاصلي للارامين كان شبه الجزيرة العربية. ومن ناحية اخرى، فان هناك من الاسباب مايكفي لحملنا على الاعتقاد بان موطنهم الاكثر صلة بهم هو بادية الشام الامتداد الشمالي الطبيعي لشبه الجزيرة العربية على وجه التحديد. وقد ورد ذكر الارامين بشكل او اخر في المدونات المسمارية، وهناك اشارة الى مدينة تدعى [آرامي] في المخطوطات الاكدية ومخطوطات سلالة اور الثالثة ، وكذلك في مدونات المملكة البابلية القديمة(٣)...

ويبدو ان هناك الى جانب الارامين، قبائل غير متحضرة كانت هي الاخرى في بادية الشام من ابرزها [الحوريون والحيثيون والاحلاميون...] وجميعهم يعودون الى [البدو] الذين كانوا يتنقلون هنا وهناك كما هو شأنهم...

٢) انظر بتوسع : جان فركوتر: مصر القديمة، ترجمة الياس الحايك المنشورات العربية، مصر - بلا - ص٦٣ ومابعدها.
(٣) انظر: جورج رو: العراق القديم، مصدر سبق ذكره ص٣٦٨ ومابعدها....

اما الاراميون فقد كانوا ابرز اقوام بلاد الشام واكثرهم تأثيراً في شخصية هذا الاقليم الحضارية، رغم ان مدوناتهم واسماءهم تبين لنا بأنهم كانوا يعبدون آلهة سومرية واكدية.. مثل آدد وايل وسن وعشتار.. وبتفاعل اللغة الارامية مع اللغة الاكدية وخطها المسماري انتشرت الارامية بعد ذلك في انحاء الشرق واستمرت حتى الفتح العربي الاسلامي في القرن السابع الميلادي[٤]...

وبسبب كثرة الاراميين واستقرارهم تمكنوا من التأثير على الوجه الثقافي لبلاد الشام وخاصة في الجوانب اللغوية، اذ اصبحت اللغة الارامية هي السائدة ابان تلك المرحلة، التي شهدت افول الدولة الاكدية والدولة البابلية والدولة الاشورية، نتيجة الغزو الاجنبي لوادي الرافدين من الاقوام الهمجية القادمة من الشرق بشكل متوالٍ...

اما صلة سيدنا ابراهيم بالاراميين فهي صلة غير مباشرة، وابرز مافي هذه الصلة هو زواج اسحاق من ابنة بتوئيل بن ناحور الارامي[٥]، ومنها جاء يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم المسمى بأسرائيل، ولان اليهود يعتبرون [الام] هي اصل النسبة لذا اعتبروا يعقوب آراميا واخذ التعميم صفته عندهم فأعتبروا اسحاق وابراهيم من الاراميين... وهذه مغالطات بعيدة عن الواقع التاريخي كما سبق الاشارة اليها في صفحات اخرى[٦]....

---

(٤) المصدر السابق...
(٥) انظر: الكتاب المقدس - العهد القديم - الاصحاح الرابع والعشرون من سفر التكوين.
(٦) انظر بتوسع: د. حسن ظاظا: الفكر الديني الاسرائيلي اطواره ومذاهبه، الناشر مكتب سعيد رأفت القاهرة ١٩٧٥.

ابراهيم في فلسطين

وصل سيدنا ابراهيم ارض فلسطين، التي كانت معروفة [بارض كنعان]، ويبدو انه اختار المنطقة المحصورة بين الخليل ونابلس حاليا، على امتداد المحور الموصل من:

[الخليل ← بيت لحم ← القدس ← رام الله ← نابلس]

اي المنطقة الوسطى المحصورة بين الغوروالسهل الساحلي.. لتكون مستقراً لنشاطه الديني والاجتماعي... وصل ابراهيم فلسطين وهو اوفر حظاً في امور الدنيا والناس.. ولكن رسالته الدينية مازالت لم تأخذ مداها الذي يرادلها...

ولابد من القول ـ باديء ذي بدء ـ ان مرور ابراهيم الخليل مسبقاً، ببلاد سورية ومن خلالها ـ عبر فلسطين ـ الى مصر، لم يكن الا مروراً لغرض الابتعاد عن الاضطهاد السياسي والكهنوتي الذي عاناه في مسقط رأسه [العراق]. مثلما هو مرور للتعرف على احوال البلاد وحركة السوق والتجارة فهو اقرب الى مفهوم [الترانزيت] منه الى السكن والولاء للبيئة الجديدة.. ويبدو ان ابا الانبياء كان هاجسه موضوع [(الاستقرار]، لانه بفطرته ووعيه ادرك ان نجاح الدعوات لايكون الا بالاستقرار الطويل، ولكن مروره بفلسطين قبل وصوله مصر قد رغبّه في ارض كنعان، وهذا ماعزم عليه، خاصة بعد اطلاعه على الوضع في بلاد الفراعنة ـ الذي اشرنا اليه باختصار ـ والذي لم يرق له، وادرك ان تجربة الملك العراقي نمرود بن كنعان ستواجهه ثانية، ان مكث في مصر، لهذا حاول اول الامر [التخفي] فركن الى العمل بالتجارة ـ او هكذا تظاهر ـ ثم عاد الى فلسطين ليستقر فيها الى حين.. لكنه لمس ان الوضع الديني والاجتماعي في فلسطين لم يكن يختلف كثيراً عن ذلك الوضع المشرك الموجود في العراق او في مصر... وان تعدد الآلهة ـ اكبر التناقضات التي واجهت دعوة ابراهيم التوحيدية ـ كانت منتشرة في كل مكان... ووجد ان الآلهة الكنعانية التي كانت تعبد في فلسطين هي مثل الالهة التي ثار عليها في العراق... واما ابرز هذه الالهة فهي:

١. الآله آل: ويعتبر اهم واشهر الالهة، ومن القابه آله النجدة، وخالق المخلوقات وأب الانسانية.. وعرف بأنه الحامي للجميع.. ويوصف على شكل رجل وسيم ذو شعر لحية بيضاء، ويلبس احيانا تاجاً مأخوذا من التاج المصري الطابع ذي القرون والريش... وقد ورد انه يعيش في قصره فوق جبل في مكان التقاء النهرين مع المحيطين(١).

٢. الآله بعل: على الرغم من اعتباره ابنا للآله ـ أل ـ الا ان هيكله يعتبر اكبر واغنى الهياكل في فلسطين، وكانت تناط به قيادة شؤون المدينة.. حتى ان [القَسم] امام الملك يؤدي بأسمه.. وبعل في الكنعانية تعني السيد، ومن القابه ايضا ـ الامير ـ وسيد

(١) انظر بتوسع: د. عزالدين غربية: فلسطين تاريخها وحضارتها، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، بغداد، ١٩٨١، ص١٢٨ ومابعدها...

الارض والمنتصر. . . ويوصف بأنه شاب قوي وكذلك انه آله العاصفة ـ المحارب والبطل ـ وانه مسّير الغيوم المسيطر على البرق والرعد والمطر. . . لذا كانت لكل مدينة كنعانية نسخة محلية من الاله بعل. . .

ومن هنا فأن وجود النبي ابراهيم، حيثما حلَّ يواجه تحديا مشركا يمثل المجتمع والدولة معاً، سواء في فلسطين او في العراق او في مصر او في سورية. . لذا اقتصرت دعوته التوحيدية على فئة محدودة من المؤمنين بالله الواحد الاحد. . . ومعظمهم من اهل بيته والمقربين له وبعض المريدين من هنا وهناك. . ويمكن القول ان وراء حكمة الله سبحانه في بناء [العائلة النبوية] التي ستكون شجرة لكل الانبياء من آل ابراهيم من نسل اسماعيل واسحاق. . . لذلك فحيثما يكون تحقيق ـ استمرار النبوة البيثوي ـ تكون وجهة سيدنا ابراهيم ـ بأمر من الله ـ وبهاجس ذاتي انساني للخلود من خلال استمرار الرسالة وحمايتها. . ويبدو ان هذا هو طبع الانسان العراقي، يسعى دائما نحو الخلود، ومن قبل كان كلكامش شاهداً أخر على مانقول(*)، حتى ليمكن القول ان فعل سيدنا ابراهيم كان تكراراً للجبلة والطبع العراقي في هذا الاتجاه. . .

ومن هنا ايضا، فان مكوث ابراهيم الخليل في فلسطين لم يدم ـ هو الاخر ـ طويلا، وكان مقرونا بتأدية حلقات من الرسالة، وابرزها كان اقترانه بالسيدة [هاجر] التي رافقته من مصر. . . ورغم ما اشاعته الاسرائيليات عن شخصيتها، وهي والدة الابن الاول اسماعيل للنبي ابراهيم، فانها لاتعدو ان تكون الا احدى اميرات العائلة الفرعونية او على اضعف الروايات ربيبة البلاط المصري العظيم(٢). . وبذلك جمع ابراهيم عظمة العراق القديم وعظمة مصر القديمة، واستقرت هذه [العظمة] في ارض فلسطين لحين من الدهر. . . قبل ان تنتقل وتستقر نهائيا في الحجاز. . حيث سيكون آمنا لعدم وجود [الدولة] لتشكل تحديا طاغيا ضد رسالة التوحيد وهي المشكلة التي عانى منها النبي ابراهيم باستمرار. . .

ان اول الاحداث الكبرى في حياة ابراهيم الخليل، ابان وجوده في فلسطين، وخاصة بعد ان تقاسم رأس المال مع ابن اخيه النبي لوط، الذي اختار ارض مواب

(*) تتفق الروايات على معاصرة [كلكامش] لعهد نوح عليه السلام، رغم ان البعض يعتبر ذلك اسطورة. . .

(٢) اود الاشارة الى ان معظم اراء المعنيين بشؤون الحضارة والتاريخ القديم، اكدوا [عروبة المصريين القدماء] وخاصة العائلة الفرعونية الحاكمة عبر مختلف الاسر التي كانت في سلطان مصر القديمة، وفي هذه المناسبة اشير الى قولين يؤكدان هذه الحقيقة التاريخية:

أ ـ مايتعلق باللغة المصرية. . . اذ قال غوستاف لوبون: «ان كل جذور اللغة المصرية القديمة، ومعظم قاموسها يتركب من عناصر ـ سامية ـ حتى اجروميتها» والسامية هي اشارة الى العربية الام.

ب ـ ماقاله غوستاف حيكي: «ان سكان مصر القدماء جاءوا اليها من جزيرة العرب ، قبل ستة الاف سنة، وان الاسر الفرعونية الاولى من هؤلاء القادمين. . .».

انظر بتوسع: انور الرفاعي: حضارة الوطن العربي الكبير في العصور القديمة، ص٥٦ مابعدها. . . .

وعمون وآدوم مستقراً له [الاردن حاليا]، هي ولادة ابنه البكر اسماعيل من السيدة هاجر. . وقضى اسماعيل السنتين الاولين من طفولته في فلسطين. . . وبأمر من الله - وليس لاي شيء اخر كما تدعي الاسرائيليات - اخذ النبي ابراهيم زوجته هاجر وابنه الوحيد اسماعيل الى ارض الحجاز، حتى وصل ارض مكة عند موضع الصفا والمروه. . وقضى حيناً معهما، وعاد لوحده الى ارض فلسطين(٣).

وقد ادرك ابراهيم الخليل ان هذا الامر الالهي اشارة واضحة الى ان المستقر والذي لم يتم او يتحقق لافي سورية ولا في مصر، سوف لايكون ايضا في فلسطين، وان كل هذه الامكنة انما هي محطات تقصر او تطول فيها الاقامة وتؤدي واجبها في الاخذ والعطاء والتفاعل، حتى يصل الامر الى ارض الاستقرار، لارتباط كل ذلك بهدف بعيد هو [خاتم الانبياء] الذي سيولد من نسل ابراهيم واسماعيل في بطاح مكة بعد قرون. . .

وهكذا يمكننا تلخيص التطورات التي رافقت عهد ابراهيم الخليل وبنيه في فلسطين بالشكل الاتي:

١. بعد ان رزق ابراهيم بمولوده الاول اسماعيل. . . وانتقل به الى ارض الحجاز، عاد الاب الجليل الى زوجته الاولى السيدة سارة، والى نشاطه العام في فلسطين، وهنا تحرك قلب السيدة سارة بالرغبة للابناء. . . كما ان ذكرى الصبي اسماعيل وفراقه الذي شغل قلب الاب ابراهيم. . فتمنى - العوض - الذي يملأ الفراغ ويكون السلوى حتى يلتقي باسماعيل. . فجاءت ملائكة السماء، ويقال انهم كانوا جبريل الامين وميكائيل وعزرائيل - عليهم السلام - فبشروهما باسحاق ومن بعده يعقوب حفيداً «ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى، قالوا سلاما قال سلام، فمالبث ان جاء بعجل حنيذ فلما رأى ايديهم لاتصل اليه نكرهم ، واوجس منهم خيفة، قالوا لاتخف انا ارسلنا الى قوم لوط، وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بأسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب، قالت ياويلتي أألد وانا عجوز وهذا بعلي شيخا ان هذا لشيء عجيب؟ قالوا اتعجبين من امر الله، رحمت الله وبركاته عليكم اهل البيت انه حميد مجيد»(٤). ومن دلالة هذه الآيات نستطيع ان نلمس ان [الملكوت] في فلسطين للنبي ابراهيم سينتهي بولادة حفيده يعقوب بن اسحاق، ويؤيد هذا الاستقراء، سفر يعقوب من فلسطين الى مصر بعد

(٣) عن ابن عباس: ان النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: اول ما اتخذ النساء المنطق من قبل ام اسماعيل، اتخذت منطقا لتعفي اثرها على سارة، ثم جاء بها ابراهيم وبابنها اسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت، عند دوحة فوق زمزم في اعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ احد، وليس بها ماء، ووضعهما هناك ووضع عندهما جرابا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى ابراهيم منطلقا. .».

انظر: عبدالوهاب النجار: مصدر سبق ذكره، ص١٠٤.

(٤) الآيات ٦٩ و ٧٦ من سورة هود.

نجاح يوسف ـ عليه السلام ـ في الوصول الى منصب [العزيز] اي رئيس الوزراء في الدولة المصرية، ودعوته لابيه يعقوب واهل بيته للمجيء الى مصر... كما هو مفصل في سورة يوسف في القرآن الكريم...

وانتقل النبي ابراهيم ـ بعد ذلك ـ الى مرافقة ابنه البكر اسماعيل حيث يقيم في مكة، التي ستشهد اختتام عصر النبوة بعد [٢٤٠٠عام] عند مجيء سيدنا محمد رسول الله.

٢. ان ما الصُق بآل ابراهيم ووصفهم بـ[العبرانيين] لانهم عبروا نهر الفرات اثناء هجرتهم من العراق باتجاه بلاد الشام، لايمت الى الحقيقة بصلة، وآية ذلك ان العبرانيين مفهوم مقصود لذاته مرتبط بخروج النبي موسى ـ عليه السلام ـ وجماعته وعبورهم الى سيناء في رحلة الخروج من [ارض العبودية] كما تصفها التوراة الى ارض فلسطين... وهنا يمكن القول، ان تسمية جماعة موسى ببني اسرائيل هي من باب اطلاق صفة الجزء الفاعل على الكل... اي ان موسى وهارون هما من بني اسرائيل منحدرين من نسل يعقوب بن اسحاق، وان مَنْ معهما كانوا من التابعين من غير بني اسرائيل، وبعض منهم كانوا من بقايا الهكسوس الذين احتلوا مصر لفترة قصيرة.. علما ان الفرق بين عصر ابراهيم واسحاق ويعقوب من جهة ، وعصر موسى وهارون من جهة اخرى كان يناهز السبعة قرون[٥]...

لذا فأن العصر العبري ـ المشتق من العبور الى سيناء ـ والمرتبط بعهد موسى وهارون من السبط اللاوي لبني اسرائيل انتهى بدخول الموسويون بقيادة يوشع بن نون الارض المقدسة.. لذا فهو عصر انتقالي بين مرحلة موسى وظهور المؤمنون بيهوذا مع بداية عهد القضاة واختيار شاؤول[٦] ملكا.. ومن بعده داود وسليمان عليهما السلام[٧].

وللتفرقة بين مفهومي [بني اسرائيل واليهود] بالامكان مراجعة آيات القرآن الكريم التي ورد فيها هذان المفهومان، خاصة وان القرآن الكريم يمتاز بالدقة والوضوح اللفظي والمعنوي والدلالة المنسوبة..... فلم ترد ـ بنو اسرائيل ـ الا بموضعها الصحيح، اي الجماعة التي تنتسب الى احد ابناء يعقوب من الاسباط ، سواء في العهود الاولى او المتأخرة ، التي انتهت بسقوط بيت المقدس ورمزه المعروف باسم [الهيكل][+] على يد تيتوس الروماني عام ٧٠ ميلادية وهو السقوط الثاني.. والذي انتهى عنده الهيكل، وتفرقتبقايا بني اسرائيل من فرع يعقوب بن اسحاق،اما بعد هذا التاريخ فان

(٥) انظر: احمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ، مصدر سبق ذكره، الفصل الخاص بعصر ابراهيم واسحاق ويعقوب...

(٦) شاؤول ورد ذكره في القرآن الكريم بأسم [جالوت].

(٧) حول اليهودية ومكوناتها الاعتقادية والتاريخية.. يمكن الرجوع الى كتاب اليهودية: د. محمد بحر عبدالمجيد ـ ملتزم الطبع والنشر مكتبة سعيد رأفت ، القاهرة ١٩٧٥.

(+) حول الهيكل... انظر بتوسع : جمال عبدالرزاق البدري:هيكل سليمان واثره في الفكر اليهودي «بحث تحت الطبع».

مفهوم [اليهود] يصبح هو السائد، واول اليهود هم المكابيون، ولذا نجد ان هذه التسمية اي اليهود، هي المتداولة في آيات القرآن الكريم، في احداث شبه الجزيرة العربية عند البعثة الاسلامية، وخاصة في العهد المدني، ويكون هذا اكثر وضوحاً عند المقارنة بين سلوك وموقف يهود الجزيرة بأشباههم المكابرون من بني اسرائيل القدامى، مما يدل على خصوصية كل مفهوم بمرحلته، وعدم جواز اطلاقه بديلا عن الاخر لانه لايمكن ان يكون مرتبطاً به لاواقعيا ولانفسيا، واسلوب القرآن - كما هو معلوم - لايجاريه بدقته اسلوب مهما سما. . . والآيات التالية توضح بدقة لفظية ومعنوية وتقريرية هذا المفهوم الذي ساده الغموض طويلا «وقالوا كانوا هوداً او نصارى تهتدوا ، قل بل ملة ابراهيم حنيفاً وماكان من المشركين، قولوا آمنا بالله ومااانزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما اوتي موسى وعيسى وما اوتي النبيون من ربهم لانفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون، فان آمنوا بمثل ما امنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم. . . . ام تقولون ان ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط كانوا هوداً او نصارى، قل انتم اعلم ام الله ، ومن اظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون»[٨].

٣. عقب عودة سيدنا ابراهيم الاخيرة الى فلسطين، حصلت ثلاثة امور اذنت له بمغادرتها. . . . الى الحجاز وهي[+]:

أ. بلوغ اسحاق مرحلة الرجولة والقيام بأمر النبوة.
ب. ولادة يعقوب بن اسحاق تصديقا لبشارة الملائكة بهذه الولادة. . .
جـ . وفاة زوجته السيدة سارة ام اسحاق ، عقب ولادة حفيدها يعقوب.

وهكذا عهد الى النبي اسحاق اتمام فرع الرسالة الحنيفية، ومن بعده ليعقوب. . والتي استمرت عبر داود وسليمان ويوسف وموسى ويحيى وزكريا وانتهت في هذا الفرع من آل عمران بمجيء السيد المسيح بن مريم - عليهما السلام - والذي حاربه اليهود اشد الحرب. . . واكبر الظن ان ابراهيم صحب معه في زيارته الاخيرة هذه لفلسطين ، ابنه اسماعيل، حيث التقى بأخيه اسحاق وبأبن اخيه الوليد يعقوب. . وشارك اسماعيل اباه بمراسم دفن السيدة سارة، وبعد ذلك العودة الى الحجاز بصحبة ابيه. . . ويبدو ايضا ان هاجر ام اسماعيل هي الاخرى قد توفيت بعد وصول ابراهيم وابنها اسماعيل

---

(٨) الآيات ١٣٥ و ١٣٩ من سورة البقرة.

(+) تتفق معظم المصادر على ان ابراهيم الخليل، دفن في مدينة [حبرون] التي تسمى الخليل في فلسطين. . الا ان سياق الاحداث والسيرة - بالنسبة لي - ترجح ان الوفاة، كانت في مكة وربما نقل الجسد الطاهر ودفن في موضع اخر. . . فليس هناك دليل نهائي مؤكد. . .

ارض الحجاز، فدفنت بمكة في نفس الفترة.. وهكذا شيع سيدنا ابراهيم زوجته سارة في فلسطين وزوجته هاجر في مكة... ليبقى متفرغاً لشؤون البيت العتيق الذي بناه مع ابنه اسماعيل حتى اخر يوم في حياته...

اشاع البعض امرّ زواج ابراهيم الخليل من احدى السيدات والمدعوة [قطورة][9] ولكن الارجح انه ما ان عاد الى مكة بصحبة اسماعيل.. وشيع زوجته هاجر، ثم اطمأن على شؤون البيت العتيق، وعهد بوصيته للنبي اسماعيل، حتى توفي الخليل الجليل في ارض مكة الى جوار زوجته هاجر.. على عكس الروايات التي تدعي خلاف ذلك.

ولقد قام اسماعيل بدفنه دون اسحاق وابنه يعقوب اللذين كانا في فلسطين آنذاك، ولم يلتقيا بعد ذلك، وهنا صدق قول الله فيه: «واذكر في الكتاب اسماعيل، انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا، وكان يأمر اهله بالصلاة والزكاة، وكان عند ربه مرضيا»[10].

وهكذا اصبحت مكة من ارض الحجاز المقام الاخير للحفاظ على خلود [الحنيفية التوحيدية الابراهيمية] التي ولدت في العراق، لتحفظها رمال الصحراء العربية في شبه الجزيرة من التلوث والعجمة.. وهكذا ايضا انبعثت الحنيفية من جديد بظهور الاسلام على يد النبي العربي محمد بن عبدالله في القرن السابع الميلادي... فكانت مكة اول بيت لعبادة الله وتوحيده «ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين، فيه آيات بينات مقام ابراهيم، ومَنْ دخله كان آمنا، ولله على الناس حج البيت مَنْ استطاع اليه سبيلا، ومَنْ كفر فأن الله غني عن العالمين»[11].

وتأكيدا لهذا المعنى ولهذه الحقيقة التاريخية جاء في الحديث الشريف: ان ابا طالب سأل النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - يا أبن اخي بما بعثت؟ فأجابه الرسول الكريم: بعثت بدين ابينا ابراهيم[12].

ويأتي قوله تعالى اشارة الى هذا المنهج الواحد بين ابي الانبياء وبين خاتم المرسلين: «ان ابراهيم كان امة قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين، شاكراً لانعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم، وأتيناه في الدنيا حسنة، وانه في الاخرة لمن الصالحين، ثم اوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين»[13].

---

(9) وتشير التوراة ان اولاد قطورة هم: زمران ويقشان ومدان ومديان ويشباق وشوحا.
(10) الآيتان ٥٤ و ٥٥ من سورة مريم.
(11) الآيتان ٩٦ و ٩٧ من سورة آل عمران.
(12) انظر: سيد قطب: في ظلال القرآن م٢، ط١١، دار الشروق بيروت ١٩٨٥.
(13) الآيات ١٢٠/١٢٣ من سورة النحل.

ابراهيم في الحجاز

اجتمع امرّ الله سبحانه ـ وهو فوق كل امر(*) ـ وامرّ الجغرافية، على ان تكون الحجاز هي المستقر الذي كان هاجس سيدنا ابراهيم يبحث عنه، ويريد بناءه للحفاظ على استمرار الرسالة. . فلو ان اسماعيل مكث مع اخيه اسحاق في فلسطين لانتهى عقبه وسط ضجيج وصراعات [الشرق القديم] ولاندثر «صفاء» نسله وسط امواج الهجرات والغزوات الارية من فرس وروم واغريق. . التي اكتسحت المنطقة. . اضافة الى صعوبة قيام دعوتين، وان كانتا تدعوان الى عبادة آله واحد في بيئة واحدة،ومما سيزيد من تعقيدها اجتهادات الاتباع التي تتفاوت بسبب قصر التصور حينا، وتضارب المصالح احيانا. . .

والواقع ان سيدنا ابراهيم منذ ان مكث في فلسطين عقب عودته من مصر اخذ يتطلع الى ماحوله ، وهو وان بدت له فلسطين دار سكن ، الا ان هاجسه النبوي كان يفتح افقه وينقله الى ابعد مما وصل اليه. . ولكن الانبياء محكومون بالمطلق من امر الله ، وليس بأمر سواه مثل بقية البشر. . ولعلٍ بعضا من آيات القرآن الكريم تنبيء عن مثل هذا الهاجس الجوال الذي لايريم «واذ قال ابراهيم ربِّ ارني كيف تحيي الموتى؟ قال اولم تؤمن ؟ قال بلىٰ ، ولكن ليطمئنٍ قلبي ، قال فخذ اربعة من الطيور فصرهن اليك، ثم اجعل على كل جبل منهم جزءاً، ثم ادعوهن يأتينك سعيا، واعلم ان الله عزيز حكيم»(1). وبرغم ان ظاهر الآية الكريمة يوحي بما هي عليه، الا انها تتضمن جدلا وتساؤلاً عن اشياء بعيدة يراد لها جواب. . . دون تصريح او فيها تصريح ضمني. . . وهو تساؤل المؤمن الذي يحب مَنْ آمن به، ان يوسع من ايمانه وعلمه بما غاب عن مداركه وتصوره. . .

ولاشك ان سيدنا ابراهيم منذ ان أمرٍ بالرحيل مع هاجر واسماعيل الى مكة ، ادرك ان ارض القرار ببكة وليس في غيرها من ارض الله الواسعة ، وهذا واحد من الاسباب لتردده بمعدل عشر سنوات مابين ارض كنعان وارض الحجاز، حتى بلغت عدد رحلاته ثلاثا او اربعا هي :ـ

١ . زيارته الاولى، حيث وضع زوجته هاجر وابنه اسماعيل، الذي كان عمره بين سنة وعامين.

٢ . في تحقيق رؤيته بذبح ابنه البكر اسماعيلٍ، ففداه الله بذبح عظيم، وكان عمر اسماعيل قد تجاوز الاربعة عشر عاما تقريبا، «ربِّ هب لي من الصالحي ، فبشرناه بغلام حليم، فلما بلغ معه السعي ، قال يابني اني ارى في المنام ، اني اذبحك فأنظر ماذا ترى؟

(*) هناك تفسيرات لاتقع ضمن دائرة العلم التاريخي المحصور بين الاسباب والنتائج ، بشأن معطيات لايمكن القول فيها سوى انها من امر الله او القدر. . لانعدام الاسباب المباشرة والمنظورة في تفسير الحدث التاريخي لها. . وخاصة في حياة الانبياء. . . .

(١) الآية ٢٦٠ من سورة البقرة.

قال ياأبتِ افعل ماتؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين، فلما اسلما وتلّه للجبين، وناديناه ان ياابراهيم قد صدقت الرؤيا، انا كذلك نجزي المحسنين، ان هذا لهو البلؤ المبين، وفديناه بذبح عظيم، وتركنا عليه في الاخرين، سلام على ابراهيم، كذلك نجزي المحسنين، انه من عبادنا المؤمنين، وبشرناه باسحاق نبياً من الصالحين»[٢].

اي ان البشارة بولادة اسحاق ونبوته جاءت بعد محاولة الذبح لاسماعيل، فأكرم الله نبيه ابراهيم بغلام اخر كريم.

٣. في بناء البيت العتيق، وكان اسماعيل قد تجاوز العشرين عاما.. اما [الرابعة] فكانت الاخيرة التي جاور فيها البيت العتيق حتى وفاته.

اضافة لما سبق توجد ـ هنا ـ جملة ملاحظات مستمدة من حيثيات السيرة.. سنتناولها دون اقحام ـ القارئ ـ بتفاصيل الاحداث العديدة الواردة في مظانها التاريخية ومنها:

١. بعد بناء البيت العتيق، ادرك النبي ابراهيم ان مكوثه الدائم سيكونُ في مكة، وليس في غيرها من بلاد الله الواسعة، وكأن مكة التي لم تعرف قبل ذلك كانت الرجاء الذي استجاب له الرب للخليل ابراهيم لتطمين هاجسه الجوال...

٢. ان النبي ابراهيم وابنه اسماعيل لقيا من الوسط العربي في الحجاز ترحيبا عظيما، واصبح لهما مكانة مرموقة، فوق مكانتهما، وان زواج اسماعيل من احدى بنات مضاض الجرهمي*، لدلالة لاتقبل التأويل على هذه المكانة وهذا التكريم.. لقد تواصل ابراهيم بزواج ابنه اسماعيل من هذه السيدة، مع قومه العرب الذين يرتبط واياهم بأصل واحد سواء أكان ذلك في: الجزيرة ام العراق ام بلاد الشام ام فلسطين ام سيناء مصر[٣]....

٣. ان النبي ابراهيم اطمأن بما لايقبل اي تردد الى استقراره في مكة، ولاريب انه عرف الحكمة التي ارادها الرب من سياحته في الارض وتنقله مابين اقطار الشرق... وان دعوته ستنبت سواء في الارض الخصبة المباركة [فلسطين] او في رمال الصحراء الدافئة وماجاورها [مكة]، تحقيقا لطلب ودعاء الخليل [واذْ قال ابراهيم ربي اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبنيَّ ان نعبد الاصنام،ربي انهن اضللن كثيرا من الناس فمن تبعني

---

(٢) الآيات ١٠٠ و١١٢ من سورة الصافات.

(*) جُرهم: قبيلة عربية من اولاد قحطان، نزلت موضع مكة قبل قبيلة قريش، وسبب نزلها مكة اكتشافها لماء زمزم ولم يكن حول الماء سوى هاجر وابنها اسماعيل، الذي كان صغيراً فنشأ مع هذه القبيلة وتزوج منها....

(٣) تؤكد المصادر التاريخية ومنها التوراة، التكريم الذي لقيه النبي ابراهيم من احد شيوخ البدو الاعراب، القاطنين في شبه جزيرة سيناء، والمدعو [مالك] عند مرور ابراهيم على مضارب هذا الشيخ الاعرابي المقيم في اطراف الصحراء العربية... بعد عودة ابراهيم من مصر.

فأنه مني، ومَنْ عصاني فأنك غفور رحيم، ربنا اني اسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة، فأجعل افئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ، ربنا انك تعلم مانخفي ومانعلن، ومايخفى على الله من شيء في الارض ولا في السماء، الحمد الله الذي وهبَ لي على الكبر اسماعيل واسحاق ، ان ربي لسميع الدعاء، ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب»[٤].

٤ . ان المرحلة التي اعقبت وفاة ابراهيم الخليل، بعد عمر ناهز الخامسة والسبعين بعد المائة[٥]، ومن بعده اسماعيل ، شهدت انحداراً لعبادة التوحيد، واقتصرت على نفر من الحنيفية، وعادت قبائل العرب الى تمجيد رموز تقربهم الى الله زلفىٰ، ولكنها سرعان ماتحولت بتركيز التقاليد المادية الى عبادة الاصنام والاوثان المختلفة، وظهر الشرك بالله سبحانه من جديد، ليسود جزيرة العرب وعموم الشرق طوال قرون وقرون، حتى مجيء الاسلام على يد النبي محمد بن عبدالله ليجدد دينَ ابراهيم، مضافا اليه ما امره الله به من ضرورات المستجدات والمتطلبات التي تلائم نضوج البشرية زائداً جوهر مادعا اليه الانبياء والمرسلون منذ نوح حتى عيسى بن مريم عليهم السلام.

وهكذا يمكننا القول بأطمئنان نابع من الايمان والعلم والتاريخ الموضوعي والواقع المرئي. . ان ماشهده العالم القديم والوسيط والحديث والمعاصر، يعود في اساسيات ملامحه وقسماته ـ بشكل مباشر او غير مباشر ـ الى ذلك النبي العراقي العربي الجليل ابراهيم الخليل. . . هي اربعة الاف عام. . مازالت تعيش بيننا في عصر التقنية المتطورة والفضاء والذرة والكمبيوتر. . فكم هو[راجح] في موازين القيم والشخصيات والتاريخ والدين والسياسة والاجتماع هذا النبي العظيم. . ولاشك في انه سيبقى هكذا بيننا حتى يرث الله الارض جميعا. . . . ويبقى المعيار انه صاحب العقيدة القدوة. . ، والانتساب اليه بمقدار الاقتراب من هذه العقيدة المجسدة اليوم وغدا مثلما هي بالامس في الاسلام. . «ومن احسن دينا ممن اسلم وجهه لله ، وهو محسن ، واتبع ملة ابراهيم حنيفا، واتخذ الله ابراهيم خليلا».

(٤) الآيات ٣٥ و ٤١ من سورة ابراهيم.

(٥) انظر: الآية السابعة من الاصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين في التوراة المعاصرة. . . ويشير المصدر نفسه الى ان عمر اسماعيل بلغ مائة وسبعا وثلاثين سنة.

الخلاصة

بعد هذه الجولة والرحلة مع النبي ابراهيم بين اقطار الشرق العربي، والتي بدأت من منطقة [الفرات الاوسط] في العراق، وامتدت الى سورية، ومنها الى فلسطين - للمرةالاولى-ثم الى مصر، والعودةثانية الى فلسطين والتنقل في المنطقة الواقعة بين الخليل ونابلس ، حتى ولادة اسماعيل والسفر به مع امه هاجر الى ارض الحجاز حيث مكة. . والتنقل مابين فلسطين وشبه الجزيرة حتى الاستقرار، والوفاة في مكة. . هي رحلة في حساب العمر سنين وايام، ولكنها في حسابات الحضارة والقيم والايمان تساوي آلاف الاعوام. . جاءت خلالها امم وشعوب، وحدثت حروب وغزوات وحصلت مفاجآت وتطورات وجاء انبياء عديدون ومصلحون كثيرون، الا ان شيئاً واحداً لم يتغير ولن يتغير هو انتصار [قيم الخير الواعية] في منطقة الشرق العربي، مهما كانت التحديات الداخلية والخارجية فهذه المنطقة الستراتيجية، التي يطلق البعض عليها اسماء اخرى مثل [الشرق الاوسط والشرق الادنى. . . .] لها اعتباراتهاالخاصة والمهمة في حسابات المصالح والسياسات الدولية المعاصرة، مثلما هي موطن الانبياء - كل الانبياء - فهي اذن ستراتيجية في حسابات الارض والسماء.

وعود على بدء: ان اهمية شخصية الرسول العراقي الكبير [ابو الانبياء] انه حيثما حلَّ ترك من دعوته التوحيدية ماجعل الناس عبر التاريخ يتهافتون على الالتصاق به والانتساب اليه، خاصة وانه النبي والرسول الوحيد الذي مُنح تفويض السماء وشرعيتها ليكون هو واحفاده انبياء ومقربين الى الله وفيهم الحكمة والكتاب والنبوة. . . وهكذا جاءت من صلبة الشخصيات الكبرى ، ويكفي ان يكون منهم: اسماعيل واسحاق ويعقوب وداود وسليمان وموسى وعيسى بن مريم ومحمد رسول الله ، صلى الله عليهم جميعا. لهذا تدعي الصهيونية زيفاً وبهتانا النسبة اليه لانها تعرف قيمة الشرعية السياسية والتاريخية التي تفوز بها من وراء ذلك. .

واخيرا وليس اخراً - كما يقول البعض - يمكن تسجيل [وجهة نظر] مفادها: ان الحروب التي تعاني منها منطقتنا هي بمثابة تحدٍ خارجي للسيطرة والاستعمار خروجاً على سياقات التاريخ والحضارة الانسانية. . ومازالت هذه المنطقة ، مليئة بالمفاجآت الكبرى لقيادة الحضارة المعاصرة لو توفر لها الامن والاستقرار، الذي بحث عنه النبي ابراهيم في سياحاته حتى وجده. . !! وتأسيساً على ماسبق، هناك حقيقة لابد من ذكرها وهي ان فلسفة النمو والتطور والنهوض لايمكن فهم شعيراتها الدقيقة دون خلفياتها العميقة، ويبقى التاريخ خير منير لحاضر ومستقبل الافراد والجماعات. . .

وهذا ماظهر في الصمود والانتصار العراقيين ضد العدوان الايراني. . وكل ذلك يؤكد بجلاء ان الدور العراقي تمكن من استيعاب [معادلة التاريخ] رغم تعقدها، لهذا فهو يسعى دائما نحو معادلة الجغرافية لاستيعابها، فأن تمكن منها نال ناصية القيادة وبدأ

دوره الكبير، وهو ماوصفه الرئيس القائد صدام حسين [بغبن الجغرافيا]* وهذا وغيره كان واضحا في تجارب الدولة الاكدية والدولة البابلية والدولة الاشورية قديما، وتجربة الدولة العباسية في الفترة المتآخرة من التاريخ الطويل للعراق العظيم...

اخيرا: ان لكل كاتب وجهة نظر وغاية تلتقي او تختلف مع الاخرين، على ان تتوفر فيها [الموضوعية والابداع]. فهل بلغت [الغاية] التي وضعتها عند فاتحة الكتاب؟

احسب اني بلغت الغاية ـ والحمد لله اولا واخيرا ـ ولكن من اجل [غاية اكبر] لمسها من قرأ الكتاب بتمعن..

ومن الله تعالى التوفيق والعز والسؤدد.

---

*) انظر: صدام حسين: نقاتل نيابة عن التاريخ لكي ينهض العربه دار الحرية للطباعة بغداد ١٩٨١ص١٦.

جدول في السور والآيات القرآنية التي ذكر فيها اسم ابراهيم

التسلسل	اسم السورة	رقمها	أرقام الآيات
١.	البقرة	٢	١٢٤ ـ ١٢٥ ـ ١٢٦ ـ ١٢٧ ـ ١٣٠ ـ ١٣٢ ـ ١٣٣ ـ ١٣٥ ـ ١٣٦ ـ ١٤٠ ـ ٢٥٨ ـ ٢٦٠.
٢.	آل عمران	٣	٣٣ ـ ٣٥ ـ ٦٧ ـ ٦٨ ـ ٨٤ ـ ٩٥ ـ ٩٧.
٣.	النساء	٤	٥٤ ـ ١٢٥ ـ ١٦٣.
٤.	الانعام	٦	٧٤ ـ ٧٥ ـ ٨٣ ـ ١٥١.
٥.	التوبة	٩	٧٠ ـ ١٤٤.
٦.	هود	١١	٦٩ ـ ٧٤ ـ ٧٥ ـ ٧٦.
٧.	يوسف	١٢	٦ ـ ٣٨.
٨.	ابراهيم	١٤	٣٦.
٩.	الحجر	١٥	٥١.
١٠.	النحل	١٦	١٢٠ ـ ١٢٣.
١١.	مريم	١٩	٤١ ـ ٤٦ ـ ٥٨.
١٢.	الأنبياء	٢١	٥١ ـ ٦٠ ـ ٦٢ ـ ٦٩.
١٣	الحج	٢٢	٢٦ ـ ٤٣ ـ ٧٨.
١٤.	الشعراء	٢٦	٦٩.
١٥.	العنكبوت	٢٩	١٦ ـ ٣١.
١٦.	الاحزاب	٣٣	٧.
١٧.	الصافات	٣٧	٨٣ ـ ١٠٤ ـ ١٠٩.
١٨.	ص	٣٨	٤٥.
١٩.	الشورى	٤٢	١٣.
٢٠.	الزخرف	٤٣	٢٦.
٢١.	الذاريات	٥١	٢٤.
٢٢.	النجم	٥٣	٣٧.
٢٣.	الحديد	٥٧	٢٦.
٢٤.	الممتحنة	٦٠	٤.
٢٥.	الاعلى	٨٧	١٩.

خط سير النبي ابراهيم متسلسلا بارقام من العراق وانتهاء بشبه جزيرة العرب . . . كما استقرءه المؤلف بتصرف عن جيمي كارتر.

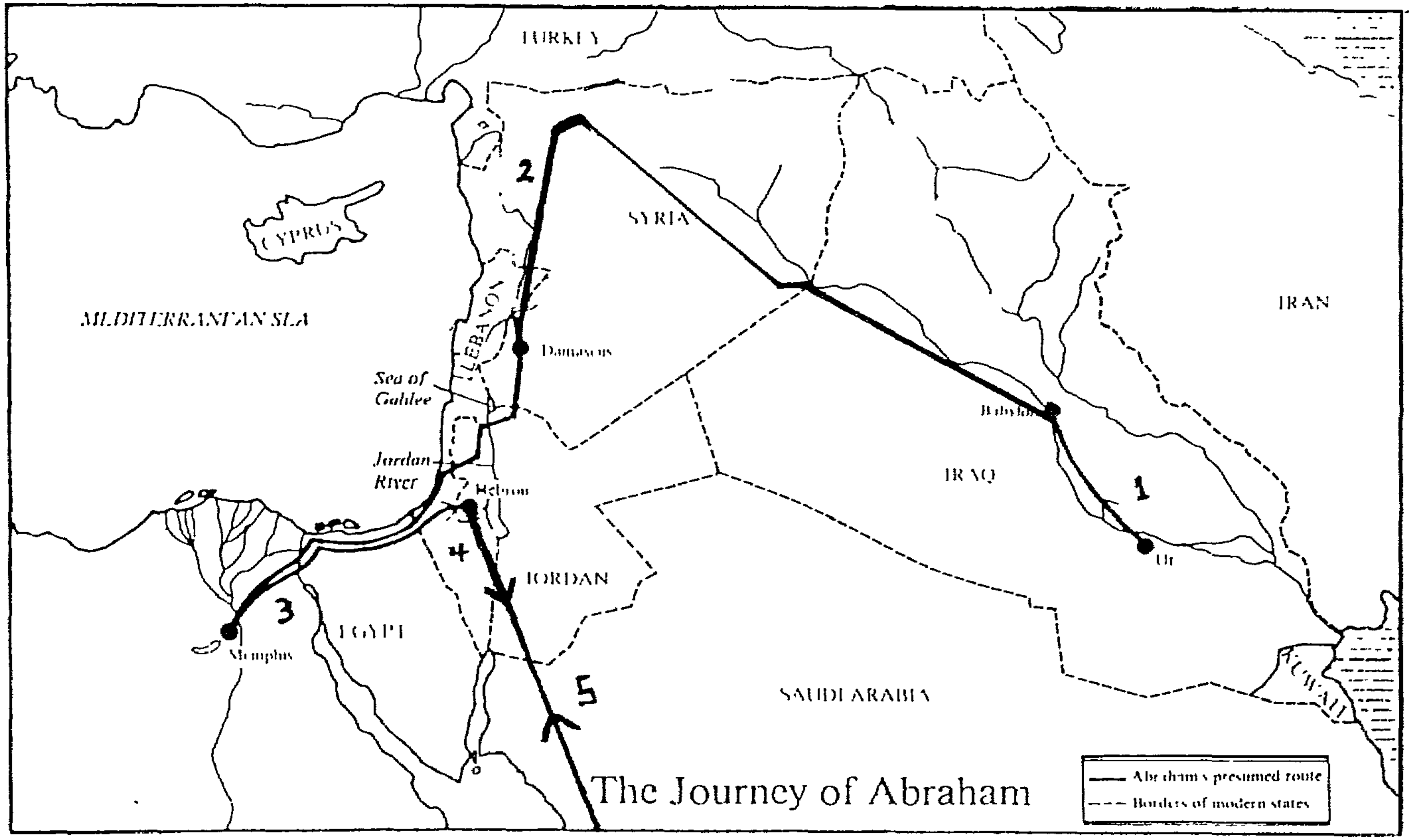

- نقلا عن احمد سوسة - وقريبة من وصف التوراة.

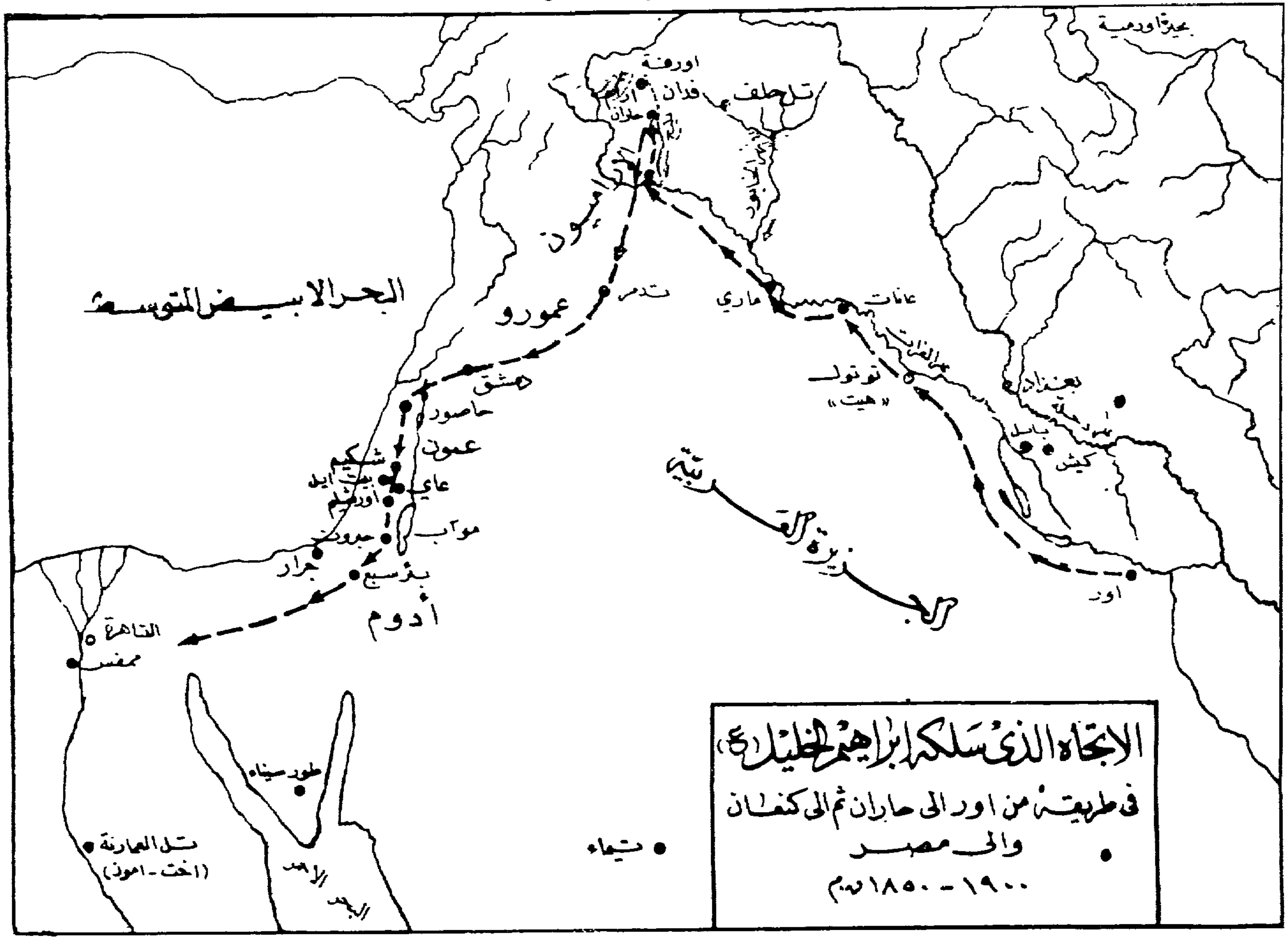

خط سير النبي ابراهيم من اور الى مصر مروراً بسوريا وفلسطين نقلا عن كتاب ـ دم ابراهيم ـ لمؤلفه الرئيس جيمي كارتر
متأثراً بوصف التوراة واعتقادات اليهود المعاصرة.

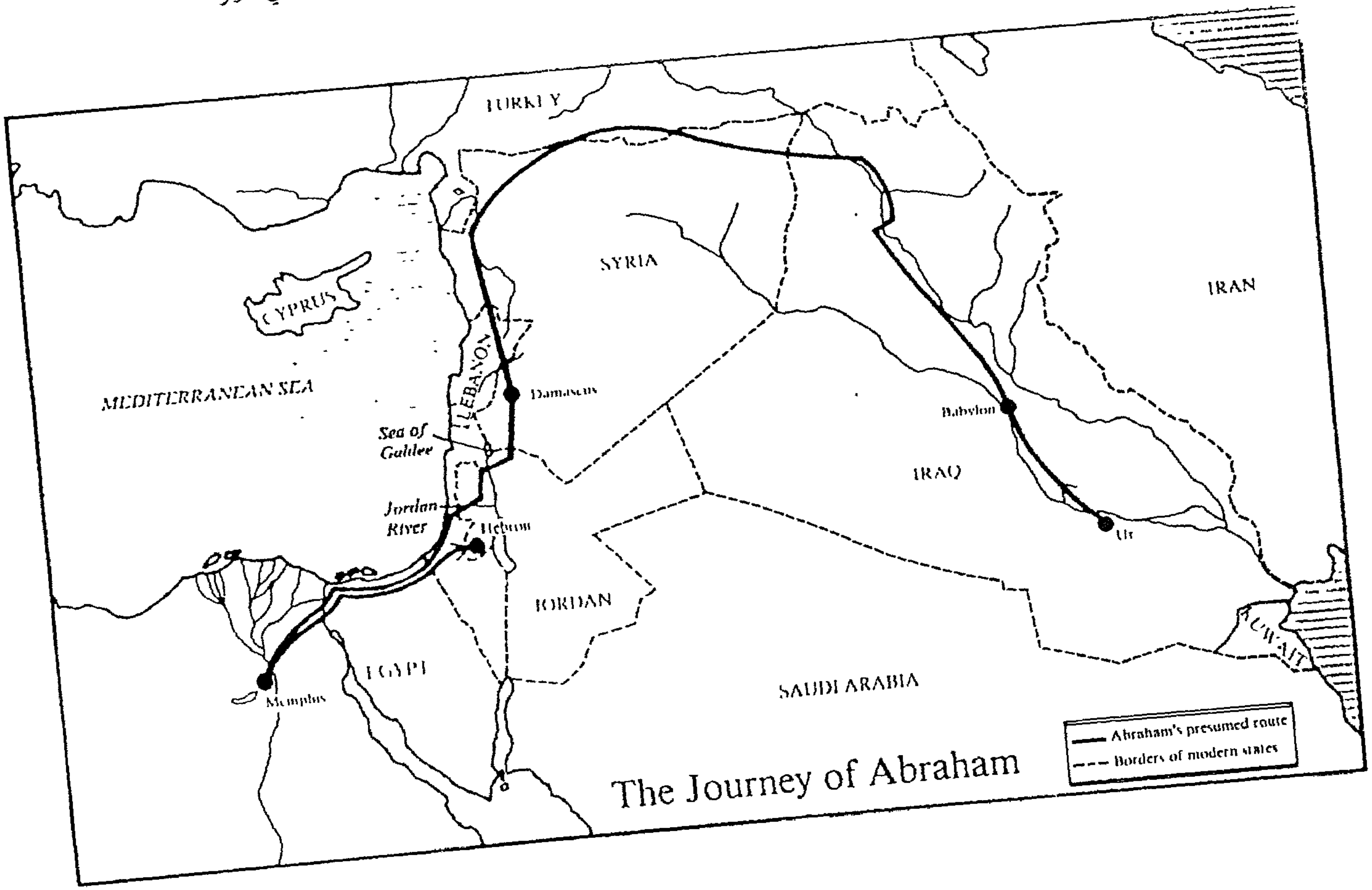

المصادر

١. الفهرس الموضوعي لآيات القرآن الكريم: عنى بجمعه وترتيبه محمد مصطفى محمد، ط٢، ١٩٨٤ بغداد.
٢. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، دار البيان، ١٩٧٣ بغداد.
٣. العراق القديم: جورج رو، ترجمة حسين علوان حسين دار الحرية للطباعة، ١٩٨٤ بغداد.
٤. قصص الانبياء: عبدالوهاب النجار، ط٣، مكتبة النهضة العربية، القاهرة.
٥. حمورابي ملك بابل وعصره: هورست كلنغل، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٧ بغداد.
٦. قصص الانبياء: ابو الفداء اسماعيل بن كثير، ط٢ مكتبة النضهة، ١٩٨٦ بغداد.
٧. العرب واليهود في التاريخ: احمد سوسة، ط٢، العربي للاعلان والنشر والطباعة، دمشق بلا.
٨. جمهرة انساب العرب: ابن حزم الاندلسي، تحقيق عبدالسلام هارون، دار المعارف بمصر بلا.
٩. التوراة: دار الكتاب المقدس، ١٩٨٢ القاهرة.
١٠. اليهودية: محمد بحر عبدالمجيد، ملتزم الطبع والنشر مكتبة سعيد رأفت، ١٩٧٥ القاهرة.
١١. فلسطين تاريخها وحضارتها: عز الدين غربية، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، ١٩٨١ بغداد.
١٢. مملكة بابل: ج. جي، ١٩٦٤ لندن.
١٣. محمد الثورة والحضارة: جمال عبدالرزاق البدري، ط٢، دار القادسية للطباعة، ١٩٨٤ بغداد.
١٤. تاريخ الرسل والملوك: الطبري، جـ٢ ط١، القاهرة.
١٥. انبياء الله: احمد بهجت، ط١٣، دار الشروق، ١٩٨٧ بيروت.
١٦. قصة الديانات: سليمان مظهر، ط١، الوطن العربي، ١٩٨٤ بيروت.
١٧. دراسات في الاساطير والمعتقدات الغيبية: صالح بن حمادي، دار بوسلامة للطباعة والنشر، ١٩٨٣ تونس.
١٨. مصر القديمة: جان فركوتر، ترجمة الياس الحايك، المنشورات العربية، القاهرة.
١٩. ابو الانبياء: عباس محمود العقاد، ط مصر، القاهرة. بلا.
٢٠. حول كتابة التاريخ: صدام حسين، حديث في ١٩٧٩/٩/١٩.. دار الحرية للطباعة بغداد.

٢١ . نقاتل نيابة عن التاريخ لكي ينهض العرب: صدام حسين، دار الحرية للطباعة، ١٩٨١ بغداد.
٢٢ . دم ابراهيم ـ مدخل الى الشرق الاوسط: جيمي كارتر [نصوص مختارة] ترجمة سلوى ساطع الحصري، ١٩٨٥ الولايات المتحدة الاميركية.
٢٣ . حضارة الوطن العربي الكبير في العصور القديمة: انور الرفاعي، دار الفكر، ١٩٧٢ دمشق.
٢٤ : حياة محمد : محمد حسين هيكل ط٣، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٨ القاهرة.
٢٥ . في ظلال القرآن: سيد قطب، م٢ ط١١، دار الشروق، ١٩٨٥ بيروت.
٢٦ . موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية: عبدالوهاب المسيري، مركز الدراسات السياسية والستراتيجية بالاهرام، ١٩٧٥ القاهرة.
٢٧ . الفكر الديني الاسرائيلي اطواره ومذاهبه: د. حسن ظاظا ـ الناشر مكتب سعيد رأفت، ١٩٧٥ القاهرة.

فهرس الخرائط

١. خارطة لرحلة النبي ابراهيم في اقطار الشرق العربي كما يراها المؤلف ص ٧٤

٢. خارطة لرحلة النبي ابراهيم في اقطار الشرق العربي كما يراها احمد سوسة ص ٧٥

٣. خارطة لرحلة النبي ابراهيم في اقطار الشرق العربي كما يراها جيمي كارتر ص ٧٦

المحتوى

١. تزكية ص٧
٢. تصدير ص ٩
٣. الغاية ص ١٣
٤. مقدمة ص ١٥
٥. مدخل عام: من عصر السلالات حتى سقوط بابل
ص ٢٣
٦. ابراهيم في العراق ص ٣٥
٧. ابراهيم في بلاد الشام ومصر ص ٤٩
٨. ابراهيم في فلسطين ص ٥٥
٩. ابراهيم في الحجاز ص ٦٣
١٠. الخلاصة ص ٦٩
١١. جدول في السور والآيات القرآنية التي ذكر فيها اسم ابراهيم ص ٧٣
١٢. خارطة لرحلة النبي ابراهيم في اقطار الشرق العربي كما يراها المؤلف
ص ٧٤
١٣. خارطة لرحلة النبي ابراهيم في اقطار الشرق العربي كما يراها احمد سوسة
ص ٧٥
١٤. خارطة لرحلة النبي ابراهيم في اقطار الشرق العربي كما يراها جيمي كارتر
ص ٧٦
١٥. المصادر ص ٧٧
١٦. فهرس الخرائط ص ٧٩
١٧. المحتوى ص ٨١

رقم الايداع في المكتبة الوطنية برقم (٢٨٤) لعام ١٩٨٩

طبع الدار العربية ـ بغداد

صدر للمؤلف

١. محمد الثورة والحضارة ـ ط١ ١٩٨٠ ـ ط٢ ١٩٨٢.
٢. الخليج العربي في المنظور القومي ١٩٨٠.
٣. الثورة والسياسة الدولية ١٩٨٠.
٤. دراسة في ادب الناشئة الصهيوني ١٩٨٩.
٥. الصراع في لبنان ـ الجذور، الواقع، القوى «تحت الطبع».
٦. بحوث تاريخية وسياسية عديدة منشورة في الصحافة العراقية...

سعر النسخة الواحدة (٢,٥٠٠) دينار

طبع الدار العربية ـ بغداد